أحمد عبد اللطيف

حصن التراب

(حكاية عائلة موريسكية)

رواية

دار العين للنشر

الأعمال الكاملة
t.me/kotbhm

إلى إيمان، سارة وكارمن، حقول الزيتون
وإلى الشاعر الكبير أحمد يماني،
حقل زيتون خاص

قبل القراءة

تحتوي الرواية على إشارات للينكات موسيقية وأخرى لأفلام وثائقية لا يمكن قراءة الرواية واستحضار حالتها دون اللجوء إليها. إنها كذلك جزء أصيل في اللعبة السردية.

المؤلف

ثلاث عربيات ناضرات
ذهبن لقطف التفاح
في "جيّان"
فوجدنه قد قطف:
عائشة وفاطمة ومريم
قلت من أنتن أيتها الآنسات،
يا سارقات حياتي؟
مسيحيات نحن وكنا مسلمات
في "جيّان":
عائشة وفاطمة ومريم.

(لوركا، أغنيات شعبية)

1

رأى أبي أن أوراقًا تتساقط من أغصان شجرة. رأى أنه اقترب من ورقة واحدة وقرأها. كانت الورقة شديدة الصفرة. كانت بحجم يده. كانت خريفية جدًا. رأى أن اسمه محفور بين نسيجها. في المنام، أدرك أبي العلامة. وفي الصباح، بصوت قادم من مكان آخر، أخبرني أن ورقته سقطت من شجرة الحياة. أخبرني كأن الأمر يخص رجلًا آخر. أخبرني بأن أربعين يومًا ما تبقى له في الحياة.

لم يكن أبي يخشى الموت. كان الموت، بكلمات أبي، محض انتقال من حياة لحياة. محض تخلٍ عن الزائل للفوز بالدائم. الموت، بكلمات أبي، انكشاف المحجوب وتعرية الحقائق. كان أبي، في المقابل، يخشى الحياة.

الحياة، بكلمات أبي، سلسلة لا متناهية من الألغاز والفخاخ. الحياة، بكلمات أبي، محض كتلة صماء تثير القلق أكثر من الطمأنينة.

مثل نبتة صبار في صحراء، كان أبي يشعر بنفسه في الحياة. نبتة انتزعوها من جذورها ليزرعوها في تربة غير تربتها. نبتة أصروا على أن تعيش بشروط التربة الجديدة، دون أن يدركوا أن الماء، على كثرته، يصب في غير مكانه. يصيب في غير هدفه.

في جولاتنا الأخيرة بالمدينة، كان أبي ينظر للشجرات نظرته إليّ. كان يودّعها كما يودّعني، في صمت. يودّع بشعور بالحزن ليتمها المبكر، وليُتمي. خطوات أبي البطيئة، الواهنة، المتكئة على عكاز، كانت توجز، يا للغرابة، سنواته الطويلة العرجاء. كانت تجيبني، بطريقة رومانسية، على سؤالي المعلق حول غربته. وفي المقابر، مستقر الجسد ونقطة انطلاق الروح، أوصاني أبي بالأوراق القديمة والصحائف. أوصاني كأنه سيتخلص أخيرًا من عبء ألزمته به الطبيعة. الطبيعة أو البشر. أو طبيعة البشر. وما بين فرحة التخلص من الالتزام والشفقة عليّ، كانت نظرات أبي حائرة.

في الأربعين يومًا الأخيرة، كان أبي بالفعل قد ودّع الحياة. كان معلقًا في الأعراف ما بين الحياة والحياة الأخرى. كان معي بجسد غير أن روحه كانت طائرة. بعينين غائمتين، كان يحدثني. بعينين غائرتين، كان يستحضر تاريخًا لم أعرفه من قبل. أو كنت أعرفه ولا أعرفه. تاريخًا كنت أتطلع إليه كأنه لا ينتمي لي. كأنه ينتمي لي. أتطلع إليه كما أتطلع إلى ختم مستدير حول سرتي. أتطلع كمن يمتلك، لكن دون حرية التصرف. كملك لا يحكم.

ختم أخضر يحمل هويتي، كأنه الترياق ضد سم الضياع. كأنه الضياع ضد سم الهوية.

بدا أبي، للمرة الأولى، عجوزًا. متوغلًا في العجز. بدا أبي، للمرة الأولى، بحكمة إلهية. حكمة تلخص حياة لم أعشها بعد. حكمة يروي بها تاريخًا هو تاريخي. تاريخًا توارثته كما نتوارث جينات آبائنا. كيف يغير حلمٌ عابرٌ حياتنا؟ من أي نقطة في الفضاء تسترق الروحُ الغيبَ؟ كيف نشيخ بين ليلة وصباح؟ أيكون عجز أبي، في نهاية المطاف، نتاج المكوث في مكان انتقالي، في مفترق الطرق؟ أيكون قلق الانتقال من أرض لأرض، من عالم لعالم، ما ولّد العجز؟ أم أن أبي رأى بعينيه العالم الآخر؟ وكان بالعالم الآخر ما تشيب له الرؤوس وتُخطف الألباب؟

في الخامسة والسبعين، كان أبي يغرب عن الحياة ليستقر جسده في الأرض. يغرب لتستقر روحه هناك، في عالم آخر لا أعرفه. وفي الخامسة والعشرين كنت أقبل على حياة سلّمني أبي، بوعي تام، فخاخها. لأسير، بإرادة تامة أيضًا، بين كل هذه الحفرات، ولأجلس، بقدمين مدلاتين، على هوة صخرية تطل على العدم.

كنت كلما تقدمت خطوة للحياة، يبتعد عنها أبي خطوتين. وكلما زاد شبابي، زادت شيخوخته. كأن الحياة، في كمالها الناصع، مكان لا يسع لاثنين. حياتي لن تتم إلا بموته. ونضجي لن يحدث إلا برحيله.

2

من أوراق إبراهيم بن ميجيل دي مولينا

تطوان/ 1679

(1)

كنا نعيش في بيت من الطوب اللبن، يتكوّن من طابق واحد وحجرة يتيمة في الطابق الثاني. وأمام الحجرة سطح واسع وخلية نحل. خلية ورثها أبي عن جدي. ورثها كما ورث البيت. ورثها كما ورث أشياء أخرى سأرثها عنه. خلية كان لا يدري إن كنت سأحافظ عليها. بيت كان كل ما نملكه في الحياة مع سبع نخلات. أجداد لم أر أيًا منهم، إلا في رسومات بخط اليد.

الطابق الأرضي كان يتكوّن من ثلاث حجرات وممر، ومرحاض يسع فردًا جالسًا بالكاد، ومائدة خلقها جدي من العدم. وتحت السلم الحجري المؤدي للسطح صنع جدي أيضًا فرنًا للخبيز. الحجرات الثلاث ضمت إحداها سريرًا وخزانة ملابس. وضمت الأخرى حصيرة وسريرين (لم نستخدم أحدهما أبدًا). أما الثالثة فاحتوت على ثلاث كتبات ومنضدة خشبية.

حجرة السطح، ذات الشرفة الخشبية، لم أدخلها من قبل. حجرة السطح، بسقفها القرميدي، كانت مأوانا في الأربعين يومًا الأخيرة من حياة أبي. كانت نقطة التقاء ما كان وما سيكون. وستغدو، إن تحققت رغبة أبي، مأواي أنا وابني ذات يوم.

حجرة السطح، التي ضمت سحارة ضخمة وحصيرة وسريرًا حديديًا، كانت بابًا مفتوحًا على التاريخ. التاريخ الذي لم أكن أعرف عنه شيئًا. الماضي الذي تحتم أن أعيش فيه. الحجرة الفقيرة في ظاهرها، كانت ثرية في باطنها. وفي باطنها أدخلني أبي. أدخلني لأنني ابنه البكري. أدخلني لأنني ابنه الوحيد. ولأنني ابنه البكري وابنه الوحيد أورثني تاريخنا. تاريخ عائلتي. عائلتي التي لم أكن أعرف عنها أكثر من معرفتي بحياة ما بعد الموت. الموت الذي لا يخشاه أبي. لا يخشاه لأنه سيدركه. أدخلني وتركني هناك. تركني في الحجرة السرية. تركني في الماضي. وبالداخل، عرفت أجدادي.

3

قال أبي: كل هذه المخطوطات، كلها لك. قال: حافظ عليها. قال: ضف إليها. قال: انسخ منها نسخًا جديدة قبل أن تذوب وتندثر. قال: ورّثها لابنك من بعدك. صمت أبي قليلًا وأضاف ما استوضحته بعد ذلك: في مدينة بعيدة، ستعرفها في أوانه، الأوان الذي اقترب، يجب أن تعثر على أوراق أخرى. أوراق عجزت أنا عن الوصول إليها.

جلس أبي على الأرض، واتكأ بظهره الأحدب على حائط شائخ. قال: أطلعني أبي على مخطوطات السحارة وشأن مخطوطات المدينة البعيدة قبل أن يموت. أطلعني وكنت أوشكت على الخمسين. كنت تجاوزت سن الترحال والفضول.

4

لم أكن أعرف إن كانت السّحارة تضم أوراقًا عن أمي أم أنها تخص الأجداد وحدهم. غير أن ما كان يشغلني، على الأقل في الساعات الأولى من الخبر، خوفي من أن أعرف ما لا يسرني. خوفي من أن أفتح بيدي صندوق باندورا، فلا أربح إلا القلق والمخاوف. وما بين الخوف والفضول كنت أدور في حيرتي. وصمت أبي، خلال كل السنوات الماضية، كان سببًا مضافًا للذهول. هل أريد بالفعل قراءة المخطوطات والتعرف على تاريخ وأجداد، أم أنني، بشكل فطري، أبحث عن أمي في الأوراق بعد أن غابت عن الواقع؟

غرفة أبي، المُبتعَدة على طول كل هذه السنوات، صارت الآن بؤرة

المركز. والماضي، هذا الذي انتهى بلا عودة مأمولة، سيغدو الحاضر وربما المستقبل. وأثناء متابعة أبي وسماع وصاياه، عليّ أن أبدأ في النسخ والترجمة.

5

"لقد ضاقت عليه الصحراء على اتساعها، فألقى بنفسه في أحد المحاجر".

(المثنوي، الرومي)

6

- علمنا نحن قس كوينكا أن السيد سانتشو دي كاردونا أدميرال، مسيحي الديانة، إسباني الجنسية، يتستر على المسلمين المسمين بالمسيحيين الجدد، وأنه يدافع عنهم ويحميهم، يستضيفهم في بيته ويأكل معهم لحم الغنم. كما أنهم يستضيفونه في بيوتهم ويأكل معهم لحم الغنم، ويعلم أنهم لا يأكلون الخنزير ولا يشربون الخمر ولم يبلغنا.
- أين التهمة؟
- التهمة هي ما سردته عليك في التو.
- لا أجد أي جريمة في أن يأكل من تسمونهم بالمسيحيين الجدد لحم الغنم،

ولا أجد أي جريمة في ألّا يأكلوا الخنزير وألا يشربوا الخمر. ولا أجد أي ضرورة للوشاية بهم.

- أنت متهم بمخالفة أوامر الكنيسة التي نصت على محاكمة كل من يثبت اعتناقه للإسلام، كما نصت على محاكمة الجيران الذين يعرفون عن جيرانهم اعتناق الإسلام دون الإبلاغ عنهم.

- أكرر: لا أجد أي جريمة في أن يأكل الفرد ما يشاء ويمتنع عن أكل ما يشاء. ولا أجد أي جريمة في أن يعتنق أحد أي دين. ولا أجد ضرورة للوشاية بهم. المسلمون أو المسيحيون الجدد جيراني وأهلي، رفاق طفولتي وأصدقاء شبابي، إنهم إسبان مثلنا، ولدوا هنا وزرعوا، كبروا هنا بيننا وحصدنا زرعهم معهم. آباؤهم وأجدادهم وأجداد أجدادهم عاشوا هنا وبنوا مدينتنا.

- أنت متهم أيضا بإنشاء مسجد للمسلمين، وهذه الجريمة تفوق جرائمك الأخرى.

- إن كنت تعتبر احترام العقائد ومساعدة المقهورين جريمة، فأنا مجرم.

- بما أنك اعترفت بجريمتك، سيطبق عليك ما يطبق على المسلمين: قررنا نحن قس كوينكا، بتفويض من القس توماس دي توركيمادا، وفي صباح الأول من مارس لعام 1478، إعدام السيد سانتشو كاردونا دي أدميرال بتهمة بناء مسجد والتستر على المسلمين.

(من محاكمة سانتشو كاردونا دي أدميرال، كوينكا1478)

7

برؤية الحلم، غدا أبي، كما قلت، في تعداد الموتى (أو الأحياء؟). كنت أرى، في الصباح والمساء، تجوال روحه بالبيت. أما جسده فلم يكن إلا مستودعًا قديمًا لحياة زائلة. جسد يتحرك بقوة غير مرئية. بوجه شاحب غير أنه قادر على الانفعال. بلسان يقطّر الكلمات كأنه يزنها. وبأذنين لا تسمعان إلا ما يأتي من مكان غير معلوم.

كلمات أبي الملهمة، كأنها ابنة وحي إلهي، كانت تنطلق في كل لحظات الصمت الطويلة. كلمات مقتضبة، كأنها خلاصات اللغة. برهن لي أبي، دون أن يدرك، أن الموت يمنح النقاء، إذ كلما اقتربت الروح من مستقرها، شفّت. وأبي كان هناك، بقدم في العالم الآخر وقدم في عالمنا. لم أكن، في

أيامه الأخيرة، إلا ذكرى، محض حامل لوصية. لم يكن يراني إلا من خلف زجاج، زجاج يفصل الموتى عن الأحياء.

قال: احفظ السر. لم أكن أدري ما السر. ولَم ينبغي أن أحتفظ به. غير أن جدية أبي كانت قاطعة. من قطعيتها عرفتُ أنني دخلت لعالم مجهول. ومن قطعيتها استشرفت نهاية اللعبة. لن تكون لعبة. لن تكون هزلًا. ستكون أكثر جدية مما يهيأ لي. في لحظة ما، وأنا أنظر لعينيّ أبي الميتتين، الغائرتين، الرماديتين، تملّكني شعور بالتيه. في أي متاهة سأدور، في أي ملكوت معتم.

تأكد أبي من غلق الباب، رغم أننا نعيش بمفردنا. وجلسنا. جلسنا على حصيرة لم أجلس عليها من قبل. وتأملت الحجرة التي لم أرها من قبل. ولمحت شقوقًا في الجدار. شقوقًا بدت واشية باقتراب السقوط. أم كانت ساقطة دون أن أدري. حينها، تلفتُّ حولي لأحفظ في ذاكرتي محتويات الحجرة. الحجرة التي، بالإضافة للسرير والسحارة والحصيرة، ضمت أوانٍ وأكوابًا نحاسية. أشياء تبدو من زمن آخر. زمن يتسق مع شقوق الجدار. زمن يتلاقى مع عينيّ أبي الميتتين. زمن بعيد. زمن بالطبع لم أشهده. وبالطبع، كما حدست، ينبغي أن أعرف عنه كل شيء.

8

من أوراق إبراهيم بن ميجيل دي مولينا

تطوان/ 1679

(2)

قال أبي، بصوت رنان، سأروي عليك ما رأيت. سأروي عليك ما رآه جدك، ما ستراه أنت في يوم بعيد. سأروي عليك منامًا صار كرسالة مقدسة نورّثها لنسلنا.

كانت شجرة بحجم مدينتنا. وكنا في الخريف. وكانت الناس تركض. كانت الناس تسير. كانت الناس تنام. وكنت تائهًا. بينما كانت أوراق

الشجرة تتساقط. أوراق مهولة تتساقط. أوراق لم تكن بحجم ورق الشجرات المألوف. أوراق مثل راحة يدي. انظر، مثل هذه الراحة. ودون وعي انحنيت. ودون وعي سحبت ورقة من الأرض. وبوعي قرأت اسمي محفورًا. اسمي واسم أمي واسم جدتي. في الورقة، كنت انتسب لأمي وليس لأبي. حملت الورقة وسرت إلى حيث لا أعلم. غير أني كنت أعلم أن ورقة الحياة سقطت من شجرة الحياة.

9

إذا كان ذنبي أن حبك سيدي فكل ليالي العاشقين ذنوب

https://www.youtube.com/watch?v=PS5c1NTSODQ

10

ظهيرة يوم الحلم، نهض أبي وفتح السّحارة. أمرني أن أنهض، فنهضت. أمرني أن أنظر، فنظرت. كانت السحارة ملأى بأوراق هائلة. أوراق مرصوصة بعناية ككتابات مقدسة. بين كل كومة أوراق وأخرى ورقة عرضية فاصلة. أدركت في الحال أن الفاصل علامة لحكاية جديدة. أو لحقبة جديدة. أو لبطل جديد. إحدى الورقات، وخلفها كومة أوراق أخرى، حملت اسم أبي رباعيًا. ورقة أقدم، وخلفها كومة أوراق أخرى، حملت اسم جدي رباعيًا. قال لي اقرأ، فقرأت. قرأت الأسماء الرباعية. وكلما قرأت سحب أبي كومة الأوراق. سحب كومة لتظهر أكوام. كأن الأوراق شجرة جذرها في الأرض السابعة. سحب كومة ووضعها على الأرض بالترتيب. كانت مئات الأوراق. مئات بأحجام مختلفة. قال: ستبدأ القراءة من القديم للجديد. قال:

ستنجز مهمة لم أستطع أن أنتهي من إنجازها. قال: نسختُ ما استطعت، وعليك أن تتم طريقي.

لمّا شرعت في قراءة المخطوطات انتبهت إلى أن الأوراق شديدة الصفرة. بعضها شبه ذائب. وبعضها أوشك على الذوبان. انتبهت، دون أن أتوقع ذلك، إلى أن ثمة مخطوطات مكتوبة بإسبانية قديمة، وأخرى بإسبانية قديمة لكن بحروف عربية (وهي اللغة الأعجمية التي كتب بها أجدادي الموريسكيون، وسمّاها الإسبان بـ ألخاميادو، بحسب ما علّمني أبي). واجهت صعوبات جمة في القراءة السريعة، و لم تشفع لي سنوات تعلّمي الإسبانية القديمة في فك كل الشفرات. اجتهدت كي أفهم ولا أضلل. ورغم حرصي على تنفيذ الوصية، إلا أنني لا أعد بترجمة أمينة.

11

كان ينبغي، إذن، أن أعيد النسخ بالعربية وأن أحتفظ بالأصول. كان ينبغي أن أترجم من الإسبانية. كان ينبغي أن أرحل إلى كوينكا.

قال أبي: رتب الأوراق بعد النسخ. أرّخ الأوراق المؤرخة عند النسخ. تفادى التأريخ بالسنوات الهجرية إن ظهرت، واكتف بتأريخ السنوات الميلادية. لاحظ أن لغة أجدادنا المدجنين والموريسكيين تختلف عن لغة التراث العربي، تختلف كما تختلف عن لغة أجدادنا الأندلسيين. امنح لكل جد صوته ما استطعت. وتجاهل أسماء الحكام إن أردت، كما تجاهل الحكام أسماءنا في دواوينهم. ثم كرر: النسخ يجب أن يكون بالعربية.

وعدني أبي، في ذاك اليوم، أن يشتري لي سحارة جديدة. قال السحارة

الجديدة ستكون للأوراق المنسوخة. للأوراق المترجمة. السحارة الجديدة ستكون أرشيفك الذي صنعته بيدك. قال وأنا أفكر إلى أي مدى سيفيد النظر إلى الوراء، وهل باقتفاء الأثر تسترد الأقدام المبتورة؟

أثناء نسخ الأوراق الأولى، مال أبي وراء السحارة وسحب ورقة ملفوفة. ورقة تشبه ورقة البردي. فتحها فكانت طويلة جدًا. بداخلها رأيت شجرة هائلة الأفرع. قال: انظر، فنظرت. كانت شجرة العائلة. ربما كانت كاملة. بداية من أجدادنا الأوائل في كوينكا، نهايّة باسمي. أمرني، بصوت إلهي، أن أضيف إلى الأسماء أسماء أبنائي. قال: ستسلّم كل تلك الأوراق إلى ابنك البكري. وصية جدنا أن تسلم الأوراق إلى الابن البكري. قال: الشرط أن يكون الابن بكريًا، لا أن يكون ذكرًا. قال: ستجد من بين الأوراق أوراقًا كتبتها جداتك. ستجد أبناء جداتك قد نسبوا أنفسهم إلى الأم حتى لا تنقطع السلالة. حتى لا ينقطع التاريخ.

في قاع السحارة، في ركن متوارٍ، كان ثمة مفاتيح. مفاتيح سحبها أبي ومنحها لي. كانت كبيرة وضخمة. كانت نحاسية. كانت عدة مفاتيح يجمعها حامل واحد فضي. قال أبي إنها مفاتيح بيتنا القديم. أي بيت؟ ابتسم لسؤالي. قال: بيت كونكة. بيوت كونكة. المدينة البعيدة. قال: المدينة التي جئنا منها. المدينة التي طردونا منها. المدينة التي بقت أرواحنا فيها حتى ولو لم نرها. قال: لا تنس أبدًا اسمها العربي: كونكة، حتى لو سمّوها بـ كوينكا.

12

من أوراق إبراهيم بن ميجيل دي مولينا

تطوان/ 1679

(3)

اقترب أبي من المخطوطات المرصوصة على الأرض. سحب إحداها. قال: انظر، فنظرت. كانت خريطة دقيقة لمدينة. مدينة صغيرة. شوارعها كثيرة وضيقة. لها بيوت منحوتة في الصخر. ولها بيوت محاطة بالتلال. أحد الشوارع كان ملتفًا بدائرة. أحد البيوت كان ملتفًا بدائرة. قال: هذا شارعنا. قال: هنا بيتنا. تحت خريطة المدينة، كان ثمة خريطة أخرى. خريطة تفصيلية للبيت من الداخل. بدا لي بيت واسع، وبدا لي تحت البيت

حياة أخرى. تحت البيت ممرات. تحت البيت قبو. وعلى جانب الخريطة الكبيرة، وبخط جميل، كُتب بالعربية: كونكة.

من بين أوراق أبي الموقّعة بالاسم والتاريخ عثرت على رسومات لأناس راقدين على ظهورهم فوق ألواح خشبية، بأيادٍ وسيقان مقيدة بحبال، ورسومات لعجلة معلق بها ومقيد رجال، وأداة تشبه الكمثرى، وأداة أخرى في شكل مثلث. تحت كل رسمة كُتب تعليق موجز: أداة تعذيب للمسلمين. فهمت من الرسومات أن الآلة المعدنية في شكل الكمثرى كانت تدخل من الفم أو المؤخرة حتى الموت. وعلى الألواح الخشبية كانت تُشد السيقان والأيادي حتى تنتزع من الجسد.

في ذاك اليوم بالذات، قرر أبي أن يرقد على السرير النحاسي. ربما كانت المرة الأولى التي يلمس جسده هذا الهيكل القديم. تطلّع إليّ، بترقب من يراني للمرة الأولى، بينما كنت أفتح المخطوطات في وجل وأتأمل أدوات التعذيب بخوف. قال: ستعثر حتمًا على إجابة لسؤالك. قلت: أي سؤال؟ قال: كيف جئنا إلى هنا، وكيف تركنا أرضنا وبيوتنا.

13

عقد موثق للسيد عبد الله بن محمد دي مولينا، مسلم.

25 يناير 1414

"يشهد السادة كهنة الكنيسة، مجتمعين في مقرهم، وبشهادة موثقة، بأن السيد عبد الله، حدّاد مسلم، ابن السيد محمد، جارنا في كوينكا، اشترى نصف قطعة الأرض المشجرة الواقعة في قرية نوآلس، والتي كانت ملكا للسيد برو سانتشيث دل بيار، قدس الله روحه (...) ويحيط بهذه القطعة من جانب: قطعة أرض مشجرة ملك لـ...، ومن جانب آخر: قطعة أرض مشجرة ملك لورثة خوان مارتينيث دي بولو خيل، ومن الجانب الثالث: سبيل، ومن الجانب الرابع: طريق".

14

أنا أيضًا كنت أبحث عن إجابة لسؤال.

اختفت أمي، مرة واحدة وللأبد، في صباح شتوي غائم. ربما كنت في الرابعة حينها، أو أصغر قليلًا. هل كنا نعيش في هذا البيت أم في بيت آخر؟ تخونني الذاكرة، لكن المؤكد، إن كان ثمة شيء مؤكد، أنني في ذاك الصبح ناديتها فلم تجبني. بحثت عنها في كل الأماكن المعتادة، فلم أجدها. سؤالي المكرر عنها، سؤالي الذي صار محور حياتي كطفل، ظل معلقًا دون إجابة. أبي اختار أن يمنح الأمل لا أن يمنح الطمأنينة، فاختصر إجابته في أنها "ستعود". ولابد أن الأمل، أو منحه، راق له، فظلت الإجابة ثابتة أكثر من عشرين عامًا. وأنا، ما بين حزن اليتم والغضب، حدست أن أمي ماتت، وعرفت مع مرور الوقت أن الراحلين لا يعودون.

أثناء ذلك، وبينما كنت أحاول فهم الموت أو الإيمان به، كان أبي يلهمني الصبر بطرق مختلفة. حينًا، يقوم بدور الأم، يكرس لي وقتًا طويلًا لحكايات بدت لي حينها غريبة وصعب تصديقها، حكايات غامضة ومجردة، وحينًا آخر، وبحس فكاهي، كان يلقط ملامحي المتشابهة مع أمي. "ورثت منها النبرة يا ابن الكلب"، كان يقول كلما تحدثنا بالإسبانية، ويضيف: "وورثت منها الحيرة والقلق". وأحيانًا، يشرّح ملامحي: عيناك البندقيتان مثل أمك بالضبط، أنفك الصغير، حاجباك الطويلان.. ثم يؤكد أنها لم تمت، ستراها يا ابني في أوانه. وأنا لم أكن أفهم مقصوده، وكنت أعرف أنه وعد لن يتحقق.

مما تبقى في ذاكرتي من ملامح أمي، ومن وصف أبي، قضيت أيامًا طويلة أرسم رسومات لها وأعلقها على الجدران. إحدى هذه الرسومات بقت تحت مخدتي للأبد، حتى جاء حلم أبي الأخير، حينئذ سحبت الصورة وظلت تلازمني أينما حللت. كأن موت أبي بعث أمي.

من فوق السرير النحاسي، وبصوت عميق يحمل أحزان سنوات مضت، قال أبي: ربما تجدها في كونكة. ربما تجدها في "حصن التراب". وبينما كان يتحدث، كان صوت أمي يرن في أذني. يرن بلغتها الأجنبية. (لغتها التي هي لغتي أيضًا، لغتي التي تسير برفقة لغتي العربية دون تنافر). يرن بصحبة ابتسامتها الرائقة.

كانت أمي بيضاء، بشعر شديد السواد، بعينين تائهتين على الدوام، وبفم مثل خاتم سليمان. كانت أمي طويلة ومكتنزة، مثل كل الأمهات لأطفالهن.

15

ثلاث مسلمات صغيرات
أغرمت بهن في "جيان":
عائشة وفاطمة ومريم.
ثلاث مسلمات جميلات
رحن يقطفن الزيتون،
فوجدنه مقطوفًا
في "جيان":
عائشة وفاطمة ومريم.

وجدنه مقطوفًا
فعدن يائسات
شاحبات اللون
في "جيان":
عائشة وفاطمة ومريم.
ثلاث مسلمات ناضرات،
رحن ليقطفن التفاح
فوجدنه مقطوفًا
في "جيان":
عائشة وفاطمة ومريم.
قلت لهن:"من أنتن يا آنسات
يا سارقات حياتي؟
مسيحيات نحن وكنا مسلمات
في "جيان"
عائشة وفاطمة ومريم.

(أغنية شعبية)

16

من أوراق إبراهيم بن ميجيل دي مولينا

تطوان/ 1695

(4)

رأيت في المنام أني أسير على أرض طينية. كلما حاولت النجاة، كانت قدماي تغوصان في الأرض السوداء. ظلت تغوص لأكتشف، وقد وصل الطين لرقبتي، أن جسدي الضعيف صار في فضاء بلا أرض. استسلمت بإرادة خانعة، للانجذاب التام. وجدتني، بكامل هيئتي ودون لطخات طينية، في أرض أخرى. أرض تبدو أكثر رسوخًا، لكنها هشة. أرض كلما سرت فيها، تاهت قبلتي. وكلما تقدمت خطوة، شعرت بنفسي أنثى في

جسد رجل. من وضعني داخل هذا الجسد؟ كيف أخطأ؟

في المنام أو في الصحو، لست على يقين، كنت أرى نفسًا غير التي يرونها. صوت رغباتي كان يتعارض مع الصوت القادم من خارجي. ما أريده يصطدم مع ما ينتظرونه مني. أنا ضيف على هذا الجسد، أم أن هذا الجسد تملكني على حين غرة؟ هل أنا الغازي أم المغزو؟

وصية أبي بالتدوين، وبنسخ ما أمكن من حمله من صحائف، كانت تتعارض مع رغبته في البقاء في الغربة. لم أشعر يومًا بحاجته الملحة للعودة لكونكة، ولا لمح ذات مرة إلى أنني يجب أن أعود. كان كمن يريد أن يعبّد طريقًا ليسير فيها آخرون. كحافظ الأسرار المتيقظ حتى يودع الأمانة لأصحابها. وأنا مثل أبي، محض حلقة في سلسلة. غير أن الفارق بيننا أنني في جسد غير جسدي، ولا أعرف إن كان بوسع جسدي المستعار أن يتناسل أم لا.

17

ذات ليلة، جاءني ابن عطاء الله السكندري. أقول جاءني في يقظتي، رغم أني أرجح أنه جاءني في المنام. جاءني وأمرني أن أزور ضريحه.

لم أكن أعرف أين الضريح. خجلت من أن أسأله فأبدو من غير مريديه. وبينما كنت أفكر، في اليقظة أو في المنام، أين يمكن أن يكون ضريح مرشد السالكين، ابتسم لي الرجل وقال: "من يبحث عني يجدني".

في نفس تلك الليلة، ذهب ابن عطاء الله لامرأة تسكن في "حصن التراب". المرأة تقول إنه جاءها في يقظتها، رغم أنها ترجح أنه جاءها في المنام. جاءها وأمرها أن تزور ضريحه. لكن المرأة كانت أكثر شجاعة لما سألته عن عنوان الضريح. ابتسم الرجل وقال "من يبحث عني يجدني".

في الساعة الأولى من صباح اليوم التالي، خرجت لأُلبي نداء ابن عطاء. سرت في الشوارع كما التائه، وبحثتُ نفسي كيف زرت كل الأولياء و لم أسأل عن ابن عطاء.

في الساعة الأولى من صباح اليوم التالي، حزمت امرأة حقيبتها. جمعت كل ما يمكن أن يخصها ورحلت. جمعت ملابسها وكتبها وأوراقها في الحقيبة. ورحلت. في الطريق، وبختْ نفسها، كيف زارت كل الأولياء و لم تسأل عن ابن عطاء.

هناك، في ضريح "قطب العارفين"، تعرفتُ على المرأة التي ستصير زوجتي.

حينها، كنت في الخمسين. وكان أبي قد توفي منذ شهور قليلة مضت.

حينها، كانت المرأة في الثلاثين، وكانت يتيمة الأبوين.

سألتها: هل جاءك مرشد السالكين؟

- جاءني وأمرني بزيارته.

- وكيف كان؟

- كان خمريًا جميل الطلعة. هل جاءك أيضًا؟

- نعم، جاءني وأمرني بالزيارة. جاءني وفهمت من الأمر أن شيئًا يجب أن يحدث.

- نعم، وأنا أمرني بالزيارة، جاءني وفهمت من الأمر أن أبقى هنا. حملت كل أشيائي وجئت.
- من أين جئتِ؟
- من قرية يسمونها بـ حصن التراب. وأنت؟
- ولدت هنا، لكننا من كونكة.

كنت أتحدث معها بإسبانية قديمة. كانت تحدثني بإسبانية حديثة. كنا نتفاهم.

18

عقد بيع للسيد عبد الله بن محمد دي مولينا.

12 أبريل 1414، كوينكا

"باعت وتنازلت السيدة كتالينا مارتينيث، ابنة جونثالو مارتينيث دل بيار، والزوجة الشرعية لخوان مارتينيث، عن قطعة أرض مشجرة كانت قد ورثتها عن أبيها المذكور، وتجاور الكنيسة الواقعة في نوآلس، إلى السيد عبد الله دي مولينا، حداد مسلم، مقيم بهذه المدينة. وحصلت عدًا ونقدًا على مبلغ 900 دوق ذهبي من التي صكتها قشتالة (...) ويحيط بهذه الأرض من جانب: أرض ملك السيد عبد الله نفسه، ومن الجانب الآخر: أرض ملك السيد خوان سانتشيث ثيرّوكي، ومن الجانبين الآخرين طريقان (...).

19

كان أبي، كما سأعتاد في الأيام التالية، يتجول في المدينة منذ ساعات الصباح الأولى. يودّع، كوداعات أخيرة، أضرحة الأولياء. ويسير، بخطوات متواطئة مع الماضي، بين المقابر.

كنت أتفهم جولات أبي، وكنت أرافقه كلما سمح لي. كنت أعلم، وهو يعلم أني أعلم، أنه يمر بتجربة روحية لم تتسرب إلي بعد. أو كانت تتسرب ببطء نهار يتسلل إلى الظلام. بجولاته، كان يستعيد الماضي عبر ذاكرة لا تلين. ذاكرة تنشط كلما زادت الخلوة وتعمّقت. وفي خلوتي، في مواجهة خلوته، كنت أستعيد الماضي عبر مخطوطات تسوّد ذاكرتي البيضاء. أثناء ذلك، كان سؤالي حول الموت من ناحية يتقاطع مع سؤالي

عن المستقبل من ناحية أخرى. إن كانت ثمة آخرة، إن كانت ثمة جنة في الآخرة، كما يعتقد أبي، فلابد أن الموتى من يشيدونها. أنظر لأبي في حركاته الأخيرة، وأظن أنها توديع حياة من أجل حياة أخرى. حياة أخرى ينضم فيها إلى الموتى ليشيدوا بيوتًا وحدائق يسكنونها. قد تكون الحياة الأخرى محض تحقيق لأحلام قديمة. قد يقوم كل ميت بتشييد ما كان يتمنى تشييده في حياة أولى غير منصفة. أتخيل أبي هناك، يجمع الأحجار الجيرية ويصنع بيتًا صغيرًا فوق تل. أو يمسك بفأس لينحت في صخرة التل بيتًا يشبه بيت كوينكا. بيت كوينكا الذي لم أره من قبل، رغم ذلك يتحتم عليّ، كفرض إلهي، أن أبحث عنه وأراه.

الموتى أيضًا من يشيدون الجحيم. بعضهم يتفرغ، كرسالة، لجمع الحطب، وبعضهم لصنع الثقاب، وبعضهم لسكب البنزين. منذ مئات القرون يقوم الموتى بنفس الفعل، ليتجاور الجحيم والجنة، وليأتي الموتى الجدد للبقاء في أحدهما أو لزيادة رقعة أي منهما. وربما يكون الجحيم والجنة شيئًا واحدًا، نفس المساحة تجمع المعنيين، وفي نفس المساحة تشعر بنعيم أحدهما أو جحيم الآخر. جنة البعض نار ملتهبة، وجحيم البعض جنة مقيمة وأبدية.

في تلك الأيام عرفت أبي. رأيت وجهًا جديدًا لم أعتد على رؤيته. تمثّل أمامي الزهد في أشد درجاته المتطرفة. ماذا نرى في أيامنا الأخيرة؟ كيف ننظر من منطقة الشيخوخة إلى الحياة؟ كيف ننظر من حافة الحياة إلى الحياة الجديدة؟ هل الأربعون يومًا الأخيرة هي جبل الأعراف بين حياتين؟ أبي يسلّمني أوراقه، كعصفورة تعلّم وليدها الطيران، غير أن الفارق أن رجل

ابي سيكون قبل أن يتحقق من قدرة أجنحتي على حمل الهواء. أبي يسلّمني أوراقه ليتخلص من عبء الحياة الأولى، وليتفرغ، بروحه وجسده، لأعباء الحياة الثانية المحببة.

ابتسامة أبي الشاردة، المتوجهة في الحقيقة لعالم آخر لا أراه، ليست إلا وعدًا لي بتجهيز الحياة الأخرى من أجلي. سيظل الموتى يعملون هناك في تشييد الجنات حتى نهاية العالم، وكلما وصلت دفعة جديدة من الموتى، كلفت نفسها بمهمة جديدة، بكامل حريتها، فيما تتمتع بما صنعه الموتى السابقون. الموتى الذين، لكونهم خارج الزمن، لا يعرفون الشيخوخة بعد أن استردوا شبابهم الدنيوي. هكذا أبي وأجدادي هناك، وهكذا سألحق بهم حتمًا، ليصل في نهاية العالم موتى يلتقون في العالم الآخر الذي تكوّن وفي انتظارهم، جنّة كانت أم جحيمًا.

شرعت في ترجمة المخطوطات وإعادة كتابتها بلغة أحاول فيها استعارة أصوات لم أعرفها، غير أن دمها يسري في دمي، ولقبي ينتهي بألقابهم. يدي المرتعشة كانت مثل يد نحات مبتدئ، عليه أن يخلق من الحجر تمثالًا. والكلمات كانت حجرًا، وأنا لا أعرف أي تمثال مشوه يمكن أن أصنعه.

كلمات أبي لم تكن موجهة لي فحسب، إذ بعد أيام أدركت أنه يرى موتى آخرين يتبادل معهم الآمال ويستعيد معهم الذكريات. كانوا يحاوطونه في الصباح والمساء، وكانوا يسلونه في مناماته الطويلة والمتقطعة. وبينما كنت أوفي بوصيته، كنت أودّعه في صمت. هل نحن من نذهب للموت أم أن الموت من يأتي إلينا؟ هل يتجلى لنا في صورة كائن أم أنه عالم خفي ننتقل

إليه؟ كان أبي يقول إنه يشم رائحة عطرة. يقول إن الموت يحسن استقبال ضيوفه الأبديين. يقول إن الموت لم يلوّث بعد بدماء الحياة. هل كان يرى أصدقاءه الموتى يبذرون النبتة في الأرض؟ هل شاهد أحدهم يقطف ثمرة من الشجرة؟ هل علم، قبل الرحيل، أي مهمة سيقوم بها في الحياة الثانية؟

ذات صباح قال سأراجع معك بعض المخطوطات. غير أني لم أثق الكلمة كوعد، إذ لم أكن أعرف هل كانت العبارة موجهة لي أم موجهة لآخرين لا أراهم. ولا كنت أعرف، إن كانت موجهة لي، كيف يمكنه أن يفعل ذلك إن كانت روحه طائرة وعيناه شاردتين.

20

ابني العزيز

في الرحيل الجواب، وفي التجوال انكشاف الحقائق. سأمهد لك الطريق لتسير، لكني لن أرفقك في سيرك. أول ما يجب أن تعرفه أن أمك ولدت في "حصن التراب"، وأغلب الظن أنها تعيش هناك.

إن لم تكن تعلم، فاعلم: تقع حصن التراب في جنوب إسبانيا، وتتبع مدينة جيان، التي صار اسمها خآئن. ستعرف أن جيان، بعد أن وقعت تحت التاج الكاثوليكي، صارت ذراعًا له لمطاردة أجدادنا، فسمّاها الملك بـ "المدينة النبيلة". كان ثمة حصون عربية لم يبق منها إلا أطلال. لكن حصن التراب لها قصة أخرى، فحقول الزيتون، يا ابني، كانت رفيقة

بنا. وأهلها كانوا أهلنا. الآن تغير اسمها كالعادة وصارت "إثناتوراه"، لكن تغيير الاسم لا يعني تغيير التاريخ. لا يعني، كما لابد أنك تعلم، تغيير الهوية.

ربما نجد في بيوت أهالينا أوراقًا أخرى. تحت البيوت مراديب وأقبية. إن وصلت، ابحث. وإن عثرت، احتفظ. وإن تعثرت، فالله غالب.

21

أوراق محمد بن عبد الله بن محمد دي مولينا

كونكة

خريف 1492

(1)

أكتب هذه الأوراق بعد سقوط غرناطة بعدة شهور. بعد تسليم أبو عبد الله الصغير مفاتيح المملكة للملكين الكاثوليكيين فرناندو وإيسابيل. أكتب وأنا في مدينة كونكة، وأتابع من هنا حدوث ما كان يجب أن يحدث. أتابع وأعرف ما سيحدث. أعرف لأنه جرى ويجري لنا في مدينتنا الصغيرة.

في كونكة، ومن قبل أن تسقط غرناطة بسنوات طويلة، تحولنا من أندلسيين إلى مدجنين، ومن مدجنين إلى موريسكيين. ورغم أن المعاهدة ما بين أبو عبد الله الصغير والملوك الكاثوليكيين تنص على بقاء المسلمين وحرية ممارسة الشعائر، إلا أني أعلم، بعد أن بلغت من العمر أدناه، أن الوعود مثل الثلوج، تذوب ما إن ترى الشمس.

أكتب هذه الأوراق الآن اتباعًا لوصية أبي. وصية سيرثها عني أبنائي. أكتب، كما كتبوا وسيكتبون، لأن الذاكرة أطلال، والكتابة ترميم. ورغم أني لست مؤرخًا، والاعتراف بالحق فضيلة، ولست كذلك من هؤلاء الذين منحهم الله القدير القدرة على سرد الأحداث وتحليلها، ولا أنا رجل ذو شأن ليهتم أحد بقراءة ما أكتب، إلا أنني أومن، والله حسبي، أن الحوليات بديل عن الكلام. ولأننا نحن، أبناء كونكة، نعلم ما جرى وما سيجري، إذ الأيام تكرار للأيام، والأحداث تكرار للأحداث، ولن يكون مباحًا لأحد أن يقول ما لا يروق للملك، أجد نفسي مضطرًا، اضطرار الحر، أن أدوّن ما استطعت. ما مكنتني منه قدرتي وعجزي. لا أبغي في ذلك إلا وجه الله، ولا أطمع سوى في أن يعرف أحفادي أن هذه أرضنا، بها ولدنا وبها نموت. وأنه ما من أرض أحب إلى نفوسنا من هذه المدينة.

لا أطمح على أي حال، ولا أتطلع بأي صورة، لأكون سندًا تاريخيًا. ولا أن تنشر أوراقي على أهل العلم والتخصص. ولا أن تأتي سيرتي بين الناس بالخير أو الشر. أرغب، ولا أرغب غير ذلك، أن أكتب ما يترسخ في ضميري ضرورة كتابته. وأن أحتفظ بذلك سرًا. سرًا حتى لا أشهد محاكمات

مثل تلك التي رأيتها بعيني. وسرًا حتى لا ينتزعها أهل السلطة مني فأخسر بذلك البلح والعنب. وسرًا لأن الأوراق ينبغي أن تصل لأحفادي وأحفاد أحفادي. فتلك تركتي لهم، وإرثي الذي أهاديهم به لو قدّروه. فالأوراق رسائل، إن لم تصل إلى مبتغاها فقدت جدواها. إذ لا فائدة من قراءة لغة لا نعرفها. ولا جدوى من كلمات لا ندرك معانيها.

يقول الأولون إن الحقيقة حقائق، وإن التفسير تفاسير. وما من شيء أضنى على النفس من قول ما نعلم في قرارة نفوسنا أنه كاذب. وما من طريق ممهدة، ولا أرض مستوية، إلا وكان فيها من العقبات والعواقب ما لم يخطر ببال. ولعل صدق الأولين ما يحثني على تحري ما أقول. ولعل يسر الكتابة ما يحثني للتيقظ لخديعة الانزلاق في الباطل. فالمرء يلقي بالكلمة كمن يلقي بحجر، إن أصاب فقد أصاب، وإن أخطأ فقد أخطأ. ورغم أني خطاء كسائر بني آدم، إلا أني لا أرغب في الخطأ والخطيئة. كما أني لا أدعي الكمال والتفرد. إذ أن المرء لا يدعي ذلك إلا وكان نقيضه على التمام. ولأنني لا أطمح لبطولة، ولا أتطلع لخلود، أكتب متحررًا من كل شرور النفس، بغية أن أوصّل لنسلي، والله حسبي، ما رأيت وما سمعت. فلعل غيري لا يقول. ولعل غيري يغويه التحريف. ولعل آخرون يسجّلون ما لم يحدث كأنه حدث. أو ما حدث كأنه لم يحدث. وفي ذلك، لو تعلمون، ظلمة الضلال وضلال الظلمة.

يمكن أن تقول، وحديثي للفرد وإن كنتم جمعًا، إنني أكتب ذاكرة. ذاكرة ربما تحتاج لترميم في زمن آخر. ذاكرة، لو كان لي أن أطمح، أطمح

أن تسري بين الناس كحكاية شعبية. حكاية ترويها الجدات للأحفاد. حكاية يرويها الصبية فيما بينهم في ليالي البرد. في ليالي الظلام. في ليالي الإفك. فللتاريخ أهله وكُتبه وكتبته، وللذاكرة أهلها وحكاياتها. وإن كنت لا أدعي الحقيقة، فالحقيقة حقائق، إلا أن لي حكايتي. فإن لم تصب الحقيقة، فمعذرتي أنها سعت.

22

لو كنتِ تدرين ما ألقاه من شجن لكنتِ أرفق من آسى ومن صفحا

https://www.youtube.com/watch?v=-EpJ0tvrELE&ebc=ANyPxKpzDgpR7Qvuph33unixGFKkGrmJwHzyw9yOSKR4HhQ-P3W16YdK9q4bVcz7bPvoJjwPRt8lsv9bb_1yHCJyfyLlj8qUgg

23

أوراق محمد بن عبد الله دي مولينا

كونكة/ 1443

(2)

كنت في طريقي إلى ورشة الحدادة. ومثل كل يوم، أتطلع لبيوت أبي عبد الله المتجاورة. فكرت، كفكرة بعيدة، أنني سأشتاق إليها. البيوت المنخفضة، بشرفاتها الصغيرة، تحمل ذكرياتي. تأملتها أكثر من المعتاد، ألقيت عليها التحية بصوت لم يخرج. اقتربت، في سيري السريع، لأراضينا المشجرة. استغربت قليلاً لمّا فكرت في إصرار أبي على أن نتعلم الحدادة.

كنت أقول إنني كنت في طريقي إلى ورشة الحدادة. وكان ذلك في الساعات الأولى من الصباح. كانت الشمس غائبة في الأفق. وكانت السماء تنذر بيوم ممطر. كان الشتاء شتاءً يجمّد الأطراف، أكبر من أن يحتمله جسدي النحيل. النحيل رغم قدرتي على الحدادة. كنت أتأمل المرتفعات. بيوتنا المنحوتة في الصخر. بيوتنا المعلقة في التلال كشبابيك. كنت أتسلق المرتفعات سيرًا. وكان هواء الصباح الشتوي يخترق رئتيّ. يخترقهما فيمنحني طاقة حب.

كنت أقول إنني كنت في طريقي إلى ورشة الحدادة، لمّا ظهر أمامي شرطي. كان يعرفني وكنت أعرفه. كل يوم كنا نتبادل التحية، ويجالسنا أحيانًا في ورشتنا. مع ذلك تجاهل معرفتنا. سألني بصوت جاف لماذا لا أرتدي الملوطة الخضراء. في البداية ظننته، وقليلًا ما كان يخيب ظني، أنه يمزح. ابتسمت وقلت له لأن الأخضر يصفّر ويقع من الشجرة. قال إنه لا يمزح، وقد صدر مرسوم ملكي بأن يرتدي كل المدجنين ملوطة خضراء. كنت أعرف أن رجل الشرطة هو رجل السلطة. رجل الشرطة لا يعبّر عن رأيه، فرجل الشرطة بلا رأي. رجل الشرطة يعبّر عن رأي من وضعوه هنا. من يعتقد، وهو محق، أنه يدافع عنهم. هو أداة، لذلك لا ألومه، فمن يستطيع أن يلوم أداة؟

كنت أقول إنني كنت في طريقي إلى ورشة الحدادة لمّا جاءتني الصاعقة. لمّا شعرت بإهانة. لما انحبس داخل رئتيّ هواء الصباح الشتوي. لم أجد ما أقوله للشرطي الذي كرر أن عليّ العودة للبيت وارتداء الملوطة الخضراء.

لم أجد ما أقوله للشرطي لمّا أمرني أن أبلّغ عائلتي وجميع جيراني من المدجنين أن زينا الجديد سيكون الأخضر. لما قال إن المرسوم الملكي صدر أمس ووصل إلى محلية كونكة. قال إنه استغرب كيف لم نعلم بالمرسوم.

كنت أقول إنني كنت في طريقي إلى ورشة الحدادة لمّا اضطررت للعودة للبيت. لمّا شعرت بأن طريق العودة قد طال. لمّا الخجل ملأني واحترت كيف سأبلغ أبي بالمرسوم الملكي.

منذ سقطت كونكة وطليطلة ومدن أخرى مسلمة تحت التاج الكاثوليكي، منذ أكثر من مئتي عام، صرنا مدجنين. لكننا كمدجنين كنا نبيع ونشتري. كنا نختلط وننمج ونتزاوج. نمارس صناعاتنا اليدوية، ونزرع بنفس اليد أراضينا.

كنت أقول إنني كنت في طريقي لورشة الحدادة لما اكتشفت أن حصننا المنيع ليس إلا حصن من تراب.

24

أخي العزيز: عبد الله

تحية وسلام

ها هي الأيام تدور يا أخي لنرى أنفسنا بملوطة خضراء، محصورين في مكان واحد كمرضى الجذام. وإذ نؤمن بأن الأيام دول، نشعر بمرارة في الحلق. هل ينبغي أن نشعر بخزي أمام أجدادنا؟ أم ندخره لأحفادنا؟ هل ينبغي أن نسلم بأن النفس أمارة بالسوء، وأن مترفيها فسقوا فيها، فدفعنا نحن الأثمان؟ أم ينبغي أن نقول، كما يقول ابن عربي، إن كل حال يدوم زمانين لا يعول عليه؟

اعلم يا أخي أن الصراع بين أهل السلطة على السلطة شر، لكن الأشد شرًا

أن نكون نحن حطب المجمرة. وإني إذ أشعر بالخزي والخذلان، أطلعك على ما اتخذت فيه قرارًا تقبّله برحابة صدر، واعلم أن الحياة حفرات، كل منا يختار حفرته التي تسع جسده.

صباح اليوم، مع شقشقة الفجر الأولى ودون اتفاق مسبق، بزغت في أذهاننا، أنا ومريم، الرحيل إلى "جيان" والاستقرار في حصن التراب. جمعنا ثيابنا وأيقظنا بناتنا وكتبت لك هذه الرسالة، ورحلنا. كل شيء جاء بغتة، وكمسحورين تحركنا. في عمق كل منا دوافع غير مرئية، تُمهد الطريق وتعبّده.

لكن اعلم يا أخي، ولعلك تعلم، أن جيان لا تزال أفضل حالًا من كونكة ومن طليطلة، فالقرب من غرناطة والقرب من أهالينا إن لم يمنحك مشقّة أقل يمنحك شعورًا أكبر بالونس والطمأنينة. في حصن التراب، يا أخي، أهل مريم يعملون في حقول الزيتون. فإن لم نعمل بالزراعة، عملنا بالحدادة وهي مهنة أجدادنا، أو عملنا بالعطارة كما نعمل هنا. لكن، لأنه لا يصح أن تقول "لن أشرب من هذا النهر مرة أخرى"، أترك لك مع هذه الرسالة مفتاح بيتنا ومفتاح محل العطارة. فإن خيرًا فخير، وإن شرًا عدنا.

أخوك يونس،
كونكة/1448

25

أوراق محمد بن عبد الله دي مولينا

كونكة 1445

(3)

وقت الظهيرة، بينما كنا نتجول في الشارع على مهل، عائدين إلى بيوتنا للغداء وبعض القيلولة، حدثنا أحد الإخوة أن ملك قشتالة وليون قد أرسل مرسومًا إلى عمدة كونكة يأمره فيه بطرد المدجنين من هذه المدينة.

كنا خمس عائلات فحسب، هاجر منا من هاجر ومات كمدًا من مات. ولولا زينا الأخضر المميز ما كان لأحد أن ينتبه لنا، ليس فقط لقلتنا،

بل أيضًا لملامحنا التي تشابهت مع الأرض. تزاوجنا فانصهرنا وصار الدم واحدًا وإن تعددت الينابيع. هذا بالضبط ما قاله العمدة في رده على رسالة الملك. قال كذلك إن المدجنين يمتلكون أسرار الصناعات اليدوية، وأشار له إلى عائلتي، الوحيدة التي تعمل بالحدادة وتخدم المدينة والقرى المحيطة بها. يبدو أن الملك لم يكن يعرف عددنا، فتجاوز عن الطرد وأمر بأن يضاعف الضرائب علينا أسوة بأماكن أخرى يدفع فيها المسلمون ضرائب أكثر. العمدة رد بأن الأماكن الأخرى تدفع ضرائب أكثر لأن عددهم أكبر، أما كونكة فعدد المدجنين فيها ضئيل، وما يدفعونه من ضرائب يعد كبيرًا.

ما قاله العمدة هو الحقيقة بعينها، ففي الممالك الإسلامية الأخرى التي سقطت في يد ملوك الكاثوليكية كان المسلمون يدفعون ضرائب مجمّعة. إذ كان يُطلب منهم كمًا معلومًا، فيتعاونون معًا كجماعة ويدفعون. ولأن عددهم كبير، فكل فرد فيهم يدفع ما في استطاعته. أما نحن، وأبي من يجمع الضرائب من العائلات الأخرى، فنسدد بالكاد المطلوب منا، إذ نعلم عن يقين أنها وسيلة لمضايقتنا حتى نخرج من أرضنا.

26

أخي يونس

حزنت لمّا قرأت رسالتك وعلمت بأنك تركت كونكة. كيف طاوعك قلبك يا أخي أن تترك أرضنا؟ أعلم أنك ستكون في أمان مع أهالينا في حصن التراب، وأعلم أن أهل زوجك سيرحبون بكم، غير أنني لا أوافقك على هذه الهجرة. فنحن أبناء كونكة. هنا ولدنا وهنا ولد أجدادنا. لم تكن كونكة شيئًا قبل مجيئنا. نحن من أقمنا بها الحصون ونحتنا البيوت في الصخر. نحن من زرعنا أراضيها وأثمرنا شجرها. ونحن من نظّفنا نهريها بأيادينا. يا أخي، أهل كونكة هم أهلنا، حتى لو تجبّر الملوك والسلاطين، حتى لو بلغت صراعاتهم على عروش زائلة مبلغ الدم. نحن وجيراننا،

ولو اختلفنا في العقيدة، أهل وإخوة. وستعلم في قادم الأيام كيف حزن لفراقك لويس وإيماكولادا وبنتهما مانويلا، وسأرسل لك تحيات كل الجيران الذين أحبوك وزوجك وبناتك.

وإنّاه ذلك لا ألومك يا أخي على رحيلك، فالحياة قاسية هنا. لكنني والله لا أعرف لي أرضًا إلا هنا، ولا أعرف جذورًا لي إلا في عمق كونكة وبصعب انتزاعها، وإن انتُزعت فلن يتوقف النزيف. وأعلم، مع صعوبة العيش، أنها غيمة ستزول. وبمناسبة ابن عربي، أذكرك أيضًا أنه قال إن "الرضا بكل ما قضى الله به لا يعول عليه".

في النهاية، أنت محق يا أخي فيما ذهبت إليه، فنحن من ندفع أخطاء حكامنا. هم تفرقوا وطغوا فسقطت ممالكهم، سعوا وراء الغنائم كما فعل الأولون في أُحُد. تناسوا عمق الرسالة وأخذوا بقشورها، فنساهم الله. خالفوا العقل وساروا خلف ضلالات. أغلقوا آذانهم عن ابن عربي وابن حزم وابن رشد، واتبعوا السيف وأهدروا الدم. اتخذونا جسرًا لمآربهم، وفوق رقابنا داست أقدامهم. واليوم تغرق السفينة، فإن غرقت تساوى في الموت الجميع.

لله الأمر من قبل ومن بعد. والله غالب

أخوك عبد الله،

كونكة 1448

27

من أوراق عبد الله دي مولينا

كونكة/1471

اليوم أجتمع بكم يا أبنائي لأخبركم بالخطر الذي يحيق بنا. لم تعد الحياة هنا أمانًا كما كانت. ولن تكون أمانًا في القادم من الأيام. سأطلعكم على ما أعلم أنكم مطلعون عليه. عاجلًا أو آجلًا ستسقط دولة الإسلام سقوطًا نهائيًا، تعرفون ذلك مما تشهدونه وتعرفونه بأنفسكم. تعرفون ذلك منذ سقوط طليطلة تحت التاج الكاثوليكي. لم يتبق إلا غرناطة، والخيانات بين الحكام المسلمين والجري وراء سلطة العدو للاحتماء به والانتصار على إخوانهم عاقبته الوحيدة ضياع الجميع، ضياع كل شيء.

اليوم أجتمع بكم يا أبنائي لأخبركم أننا المستضعفون في الأرض، نحن من لا يسمعنا أحد ولا يعبأ بنا أحد. وما دام الأمر كذلك وندركه، علينا أن نحفر تحت بيوتنا بيوتًا، وأن نحفر بها ممرات وأقبية. أن نحتفظ في الغرف السفلية بكل غالٍ نملكه. فإذا تعصّب ملوك الكاثوليك ضدنا، أكثر مما يتعصّبون الآن، كانت لنا مخبأ وملاذًا. وإذا جاء يوم وطردونا، احتفظنا لأحفادنا بما يجب أن يصلهم كإرث لنا. أثناء ذلك، أثناء ممارسة الحياة والحفر، لا تنسوا أن تدوّنوا هذه الأيام، فسيأتي يوم على الناس تكون فيه الكلمة هي الحق. فكونوا محقين.

وأخيرًا، لا يخدعنكم أحد بأن الكاثوليكيين يكرهون المسلمين، ولا أن الكاثوليكيين يتطلعون لطرد وقتل المسلمين. انظروا إلى أعمق مما ترونه على السطح، فحقيقة الأشياء ليست كما تبدو عليه. انظروا لتروا أن الملك يحرك الكنيسة، وليست الكنيسة من تحرك الملك. انظروا لتروا أن مآرب الملك الكاثوليكي تُختصر في السلطة والسيطرة والتوسع، والكنيسة محض أداة. الكنيسة التي تتحدث باسم الرب تجمع من الأتباع أكثر من الملك الذي يتحدث باسم الوطن. والضحية "الكافر" لن يجد من التعاطف ما يمكن أن يجده الضحية الخائن. هكذا يفتشون في ضمائرنا حتى ينتزعوا أملاكنا، لا ليرسموا أيقونات القديسين في قلوبنا.

28

فانحَلّ ما كانَ مَعقُودًا بأنفُسنا، وانْبَتّ مـا كانَ مَوْصُولًا بأيدينا
وَقَدْ نَكُونُ، وَمَا يُخشَى تَفَرّقُنا، فاليومَ نحـنُ، ومَا يُرْجى تَلاقِينَا
بالبيتِ شعري، و لم نُعتِبْ أعاديَكم، هَلْ نَالَ حَظًّا منَ العُتبَى أعادينا
لم نعتقدْ بعدكمْ إلاّ الوفاءَ لكُمْ رَأيـاً، و لَمْ نَتقلّـدْ غـيرَهُ دِينـا

(ابن زيدون، أضحى التنائي)

29

من أوراق محمد بن عبد الله دي مولينا

كوينكا/ 1502

(3)

اليوم، يا أبنائي، يتحقق ما تنبأنا به. اليوم ينقُض الملك الكاثوليكي عهده مع أبو عبد الله الصغير. اليوم يُخيّر المسلمون ما بين التنصير أو الرحيل النهائي قطعيًا. ما حدث في كوينكا منذ سنوات يحدث الآن في بقية الممالك الإسلامية التي سقطت. محاكم التفتيش التي انطلقت من كوينكا ستصل إلى الأندلس بأسرها. ما فات، مقارنة بما هو آتٍ، كان تسامحًا. وما بين المرّين سيختار أهالينا هناك الأقل مرارة: التنصير. فالفقراء

ليسوا من علية القوم كي يهاجروا، وليسوا من قادة الجيوش كي يجدوا مخرجًا.

من اليوم، سيشهد إخوانكم في غرناطة وقرطبة وإشبيلية وقادش وجيان ومالقة مرارة الهزيمة. سيحرم عليهم أن يسموا أبناءهم.عما يحبون. أن يأكلوا ما يحبون. أن يغنوا.عما يحبون. من اليوم سيصيرون "المسيحيون الجدد". من اليوم، ستنصب لهم محاكم التفتيش كما نصبت لنا، ستعلق رقابهم في المشانق إن لم يأكلوا الخنزير. سيصومون رمضان سرًا. سيصلون في الخفاء. سيكتب عليهم، يا أبنائي، ما كتب على أهل كونكة من قبل: الصلاة للمسيح في العلن. والصلاة على محمد في الخفاء.

يا أبنائي، عانقوا بعضكم بعضًا، فقد جاءكم اليوم الذي لن يعانقكم فيه أحد إلا من أجل قتلكم.

30

"نقر نحن قساوسة كنيسة كوينكا، في اليوم الأول من عام 1479، وبعد التحري والتحقيق، وبعد سماع شهادات الشهود، أن المدعو خوسيه إرنانديث، مسلم من عائلة كاثوليكية، ادعى كذبًا أنه عاد للكاثوليكية بعد صدور المرسوم الملكي بطرد المسلمين أو عودتهم لطريق الحق، وأننا تبين لنا بوسائلنا المتعددة أنه يصوم رمضان مثله مثل المسلمين.

وبناءً على ما تقدم، ارتاحت ضمائرنا إلى أن الحكم العدل عليه أن يبطح فوق اللوح الخشبي، وأن تقيد يداه وقدماه من خلاف، وأن ينال التعذيب العادل بفصل أعضاء جسده عن بعضها حتى الموت. فلعل في العذاب تطهير لروحه الكافرة".

(محاكمة خوسيه إرنانديث، كوينكا، 1479، لصيامه شهر رمضان).

31

من أوراق مانويل كارلوس بن مروان بن مريم بنت عبد الله دي مولينا

(مانويل دي مولينا)

كوينكا/1609

(1)

قالت أمي سنستحيل أحجارًا. سنستحيل بعد نصف ساعة من الآن. قلت لا أصدق. قال أبي إذن يجب أن نستعد. قالت أمي كيف نستعد. قال أبي بأن نختار جبلًا بعيدًا. بعيدًا. قالت أمي يمكن أن نكون أحجارًا في أي مكان. قلت لا أريد أن أكون حجرًا. قال أبي حجر الشارع ليس مثل حجر

الجبل. صمتت أمي. قلت لا أريد أن أكون حجرًا. قال أبي حجر الشارع يستخدم للقتل. يستخدم للجرح. يستخدم للأذى. يستخدم للتبول عليه أو للاستنجاء به. قال أبي حجر الشارع يستخدمه الأطفال في اللعب. قال أبي حجر الجبل مصون. حجر الجبل ثابت. حجر الجبل مستريح. قالت أمي الحجر حجر في كل مكان. قلت لا أريد أن أكون حجرًا. قال أبي لا أريد أن أكون حجرًا في أي مكان. أريد أن أكون حجرًا في جبل. قالت أمي يمكن أن نختار نوع الحجر. قلت لا أريد أن أكون حجرًا. قال أبي أريد أن أكون حجرًا رخاميًا. قالت أمي أفضّل أن أكون جرانيتًا. قلت لا أريد أن أكون حجرًا. قالت أمي يجب أن نختار. سنستحيل حجرًا. قلت فلأكن حجرًا رمليًا. قال أبي كن جرانيتًا. قلت لا. قالت أمي الجرانيت يتألم كثيرًا. قال أبي الجرانيت يعيش كثيرًا ويحتمل كثيرًا. قالت أمي لكنه يتألم كثيرًا. قالت أمي الجرانيت لا يتفتت. الجرانيت ينقسم. قلت لا أريد أن أكون حجرًا. قال أبي فلتكن جيريًا. قالت أمي الجيري أفضل. ليس صلبًا مثل الجرانيت ولا ليّنًا مثل الرملي. قال أبي أريد أن أكون رخاميًا. قال الرخامي صلب. قال أحب الصلب. قلت أريد أن أكون رمليًا.

قبل انتهاء النصف ساعة انتقلنا للجبل. كان الجبل في النهاية قريبًا من البيت. كان الجبل يطل على كوبنكا كاملة. كان الجبل هائلًا مثل اتساع العالم. كان جبلًا أو تلًا. لكنه كان مثل اتساع العالم. وكان يطل على بيوت منحوتة في الصخر. بيوت مثل الشبابيك تتطلع إلى العالم في استحياء. وقفت أنا في طرف. وقفت أمي في طرف. وقف أبي في طرف. شكلنا مثلثًا دون رغبتنا. وظل كل منا يرنو للآخر فلا يرى إلا ظلًا. كانت

أمي ضئيلة جدًا. كان أبي ضئيلًا جدًا. لم أكن متأكدًا من أني أراهما. كان يهيأ لي أني أعرف مكانهما. أني أنظر في مكانهما وأتخيل صورتهما. لا أعرف إن كان يهيأ لي أم كنت أراهما بالفعل. لو كنت أراهما فقد كانا صغيرين مثل عقلة إصبع.

لم تقل أمي ماذا بعد مرحلة الحجر. قالت سنستحيل أحجارًا. قالت وصمتت. قالت وتجادل أبي في نوع الحجر. قالت وأنا خفت من التحول. من الهجر. من العزلة. خفت من أن أكون محض حجر في جبل. محض حجر في بناية. محض حجر في مقبرة.

32

من أوراق مانويل دي مولينا

كوينكا/1609

(2)

في الجبل وقفت في مكاني. وبعد فترة ربما دقائق. ربما ساعات. ربما قرون. استحلت حجرًا. كيف صار شكلي. لا أعرف. لابد أني صرت مثل حجر. حجر أبيض مصفر. لابد أن جلدي صار مفتتًا من أثر الرطوبة أو الماء. لكني بقيت من الداخل كما أنا. ظللت أرى. ظللت أسمع. ظللت أفكر. لكني توقفت عن الكلام كحجر. توقفت عن الجوع كحجر. لكني لم أتوقف عن العطش. لساني صار جافًا. حلقيَ صار صحراء. وذات يوم

شعرت بقلق. شعرت بضجيج. وشعرت بهزة أرضية. أو بصاعقة من السماء. ركزت حينها واكتشفت وأدركت. كانوا يكسّرون الكتلة التي أنتمي إليها. الكتلة التي صرت أنتمي إليها. انتزعوا حجرًا من جواري. حجرًا ضخمًا كان يسندني. حجرًا كنت أتكيء عليه. حجرًا كان حافلًا بالحياة ورموه أمامي صريعًا. هل كان الحجر ابن عمي؟ رجلان ضخما الجثة وقفا بمواجهتي. وقفا منهكين. وقفا ينظر كل منهما للآخر ويتفوه بشتائم. شتائم موجهة إلى حجر أخرس. والحجر كان يتألم. سمعت الحجر يتألم. يتألم ويسب الرجلين بشتائم أعرفها. انتبهت حينها أني لا أرى إلا أمامي. أني أصبحت لا أمتلك قدرة النظر بجانبي. فقدت قدرة الالتفات للخلف. ثم جاءت عربة وحملت الحجر. حملته وحده. انتزعته من عائلته. عائلة ودّعها برفع نفسه قليلًا لأعلى. عائلة ينتمي إليها وأنا دخيل. دخيل على العائلة. ابن العائلة هجرها وأنا بقيت. بقيت كدخيل على العائلة. كان ذلك في صباح مشمس. بعدها حرقتني الشمس في الظهيرة.

الأيام التالية لم تكن كارثية. لم تكن أكثر كارثية. أصبح معتادًا انتزاع حجر أو اثنين. أصبح معتادًا حرق الشمس لجلودنا اللينة. أصبح معتادًا الشعور بالبرودة. الشعور بالهجران. الشعور بالوحدة. وفي لحظة عابرة شعرت بالخوف. الخوف من أن ينتزعوني لمكان لا أعرفه. من أن ينتزعوني بآلة حادة تضرب جسدي. من أن يسيئوا انتزاعي فيبترون ذراعي. من ضربة طائشة تؤلم رأسي. الشعور كان عابرًا. كان عابرًا في لحظة عاطفية. عاطفية لأن الحجر مصيره محتوم. كنت أقول محتوم وأنا أعرف شيئًا آخر. أعرف أن ثمة أحجارًا تبقى للأبد. تبقى دون أن يلتفت إليها أحد. وفي لحظة أخرى عابرة تمنيت ذلك. أن أبقى هنا دون أن يراني أحد.

33

من أوراق مانويل دي مولينا

كوينكا/1609

(3)

مر زمن وأنا حجر. زمن لا أعرف مقداره. ربما سنوات. ربما قرون. شموس كثيرة مرت على جسدي. أقمار كثيرة أطلت على جسدي. أمطار كثيرة أغرقت جسدي. أمطار وصلت إلى أعمق حباتي. حباتي التي يظنونها أكثر خشونة. حباتي التي أعلم أنها الأكثر هشاشة. وذات يوم حدث ما كان يجب أن يحدث.

الآلة الحديدية بدأت تعمل. وأنا أبكي كطفل. تضرب من يميني ومن يساري. وأنا أبكي كطفل. يرن صداها في رأسي. تقترب بإصرار من ذراعيّ. وأنا أبكي كطفل. ثم أصابت ضربةٌ ركبتي. أصابتْ وصرختُ. صرختُ فانتفض العامل. انتفض الحجّار. انتفض وسأل زميلًا يعمل بجواره إن كان سمع صرخة. قال لا. قال لم أسمع. قال يُهيأ إليك. قال الحجارة لا تشعر. فعاد الحجّار للعمل بطاقة أقل. بضربات أكثر خفة. ربما ظن أنه ضرب عفريتًا نائمًا على الحجر. وربما ظن أن العفريت هو نفس الحجر. وربما ظن أنها تهيؤات. مئات الضربات تسببت في تصدعاتي. في تصدعات جسدي. في تصدعات روحي. ثم انتزعني الحجّار بصعوبة. دفعني بيديه وقدميه. وانتبهت لسبب ألمي الكبير. نظرت لمكاني لأرى أصابع قدميّ وجزءًا من كعبيّ. قلت وداعًا يا أصابع قدميّ. قلت وداعًا يا كعبيّ. حينها تذكرت أمي. حينها تذكرت أبي. ربما لو كنت رخامًا أو جرانيتًا لبقيت مكتملًا. ربما لو كنت رمليًا لتفتت. لتفتت وانتهى أمري. لكني كنت حجريًا. حجريًا يملك من الحياة ما يملكه من الفناء. حجريًا يتألم لكنه لا يموت.

من العربة كنت أتطلع لزملائي الأحجار. لعائلتي الأحجار. كنت أرقب صمتهم. صمتهم أو خرسهم. كنت أرى نظراتهم الشاردة. كنت أرى انتظارهم لأدوار أخرى في الحياة. في الحياة أو الموت. لم أعرف هل كل الأحجار كانت أحجارًا منذ البدء. يقولون إنه في البدء كان الحجر. أم أنها كانت بشرًا فتحولوا. تحولوا وتغير شكلهم.

لما مررت بمكان أمي لم أر أمي. ذابت بين الأحجار الأخرى. اكتسبت لونًا مع مرور الوقت. استحالت قطعة سيامية. لا يمكن تمييز أمي وإن كنت ميزت مكانها. ميزت الأرض التي تشغلها. أبي لم يكن أكثر حظًا. كان مثل آلاف الأحجار المتراصة بمهارة فوق بعضها. متراصة مكونة جبلًا أكثر أناقة وصلابة. جبلًا يستجيب لهزات أرضية. أبي كان هناك. لابد كان صامتًا ينظر للعالم. ربما يبحث عني. ربما يبحث عن أمي. ربما يستحضر ذكريات لم يكن فيها حجرًا. هل يراجع الآن أفكاره حول الحياة والموت. حول التعاسة والسعادة. حول العائلة والعزوبية. حول الدين والتسامح. ربما يفعل ذلك. وربما يتكيف مع وضعه الجديد. ما أعرفه أن أبي تحول تدريجيًا. كان يقول إن أعضاءه الداخلية كانت تستحيل أحجارًا. كان يشعر بهذا التحول على مهل. ذات مرة قال لأمي إنه يريد ماءً. إنه لا يريد إلا الماء فحسب. كان يقول إن معدته غدت قطعة حجر جافة. قطعة حجر لا تطلب إلا الماء. مرت أيام على ذلك. مرت سنوات على ذلك. ثم قال لأمي دون يقين إن قلبه وكليتيه وطحاله وأمعاءه استحالت أحجارًا صغيرة. جسد من عظم ولحم ليس إلا إطار لأحجار صغيرة. أمي ضحكت. أمي بكت. أمي شردت. وأنا كنت أتطلع لأبي كمن يتطلع من شرفة إلى أرض لا يعرفها. أرض أخبروني أنها لي. لي لكن دون أن أمتلك عقود ملكيتها.

ومرت أيام. مرت سنوات. مرت قرون. ثم تبع ذلك ربما تحولات أمي الكلية. أقول ربما لأني لا أعرف. ما أعرفه أن أمي أخبرتنا بالتحول لأحجار. أخبرتنا فاخترنا أماكننا كأننا بذلك مخيرون.

34

ما الذنب الذي اقترفه الموريسكيون؟

https://www.youtube.com/watch?v=ls2W_JprgSE

35

من أوراق مانويل دي مولينا

كوينكا/ طليطلة/ 1609

(4)

كانت السماء تمطر وأغرقتني. أغرقت العربة الصغيرة التي تحملني. أغرقتني وروت عطشي. عبرت إليّ عبر تشققاتي وسكنت ألمي. تشققاتي كانت ضئيلة. ضئيلة وضيقة. لا أحب المبالغات. التشققات لم تكن فادحة. لكنها مثل الوخزات التي لا يراها أحد غير أنك تشعر بها. تشعر بها لأنها وخزاتك. وكان صوت العمّال عاليًا. كانوا يتبادلون المديح حينًا

والسبـاب حينًا. فيما كان الحُوذي صامتًـا. والعامل المجاور لي يحدثني. يحدثني وينظر إلي كأنـه يراني. كأنه يكشفني. لم يكـن يشكو من شيء. كان يتحـدث كمن يتحدث إلى نفسه. كان يراجع حياته ويفكر في مصير مختلـف. يستخدم "ماذا لو" ليسلي طريقه. قال يا بختك يا حجر. قال كم أنت سعيد يا حجر.

أثناء ذلك كانت العربة تصعد تلًا عاليًا. تلًا من الجرانيت. ومن فوق التل كانت البيوت تطل على نهر التاجو. ومن مكاني بالعربة كنت أرى قصورًا مشيدة. حصونًا ذات أبراج عالية. أسوارًا تطوّق المدينة. كنت قد وصلت إلى طليطلة. علامتها كانت "باب الشجرة". وجسر القنطرة. ومسجد المردوم. علامتها كانت رائحةً عربيةً تعطّر الأرض. في ساحة "سوق الدواب" توقفت العربة. رأيت أمامي "قوس الدم". استحضرت ذاكرتي أجدادًا تعلقت رقابهم في مقاصل بهذا القوس. تذكرت "ليلة طليطلة" التي أُعِد للمسلمين فيها مذابح. دمعت عيناي دون أن ينتبه لها أحد من العمال. دمعت عيناي دون أن أتمكن من السيطرة عليها. دمعت عيناي فاختلطت بماء المطر. وفي لحظة عابرة انتبه لها أحد العمال. قال الحجر يبكي. قال الآخر الحجر يعرق. فيما استحضرت ذاكرتي الصغيرة جداتي وهُنّ يُسألن عن دينهن. وهن يسحبن من شعورهن. وهن يعلقن من حلمات أثدائهن. وهن عاريات يشعرن بخزي العُري أكثر مما يشعرن بآلام التعذيب. استحضرت أمي وهي تقول هذه أوامر الملك وليست أوامر القس. الملك يريد الإمبراطورية لا نصرة المسيح. القس يريد السلطة لا نصرة المسيح. أمي قالت ما من عداوة بين المسيح ومحمد. أمي قالت لكن

أمي استحالت حجرًا. أمي قالت كأنها بقولها نظرت إلى وجه الميدوزا اللعين.

اقترب رجل بشعر طويل ونظر ناحيتي. أماء برأسه بموافقة لم أفهم دلالتها. ثم واصلت العربة السير. واصل الحصانان الخبو في شوارع هابطة وأخرى مرتفعة. في شوارع ضيقة كفرجات الأصابع. فيما واصلت أنا الارتجاف. ليس خوفًا مما سيأتي. بل خوفًا مما مضى. أخيرًا وصلنا إلى بيت بأطراف طليطلة. بيت يطل على كنيسة سان خوان دي لوس ريس. وانتبهتُ للأغلال النحاسية المعلقة على واجهتها. سمعت عاملًا يقول إنها أغلال آخر الأسرى المسيحيين في يد المسلمين. وسمعت العامل الآخر يقول إنها مفاتيح بيوت المسلمين واليهود المطرودين منذ سقوط غرناطة. وأنا أتأمل الأغلال وأتساءل إن كانت حقًا أغلالًا. أم أنها كانت بشرًا واستحالت إلى ذلك مثلنا. أنصت وأنا أفكر في أن العامل قال "سقوط غرناطة" وليس "استيرداد غرناطة". أفكر في أن هذا العامل من عائلتي.

في بيت طليطلة تركوني في رواق بلا سقف. رواق أتطلع من خلاله إلى سماء غائمة. أتطلع فيما تطل عليّ شبابيك وشرفات. تطل عليّ وأنا ملقى على ظهري. وفي اليوم التالي ظهر الرجل. الرجل ذو الشعر الطويل. انتبهت حينها إلى أن لحيته طويلة أيضًا. أنه نحيف أكثر مما يبدو. أن عينيه غائرتان أكثر مما ينبغي. لكنه اعتنى بي. اهتم بحمايتي. انتبه للتشققات الضئيلة في جسدي. انتبه لتضررات قدمي وكعبي. استاء لذلك. استاء وصمت. ثم قرر أن يمنحني الحياة. الحياة التي يرى أنني أستحقها. الحياة التي تختلف عن الحياة التي صرت إليها. الحياة التي تحفظ لي الحياة. ربما

قال ذلك. ربما فهمت ذلك. ربما قال شيئًا آخر وأنا فهمت ذلك. وربما كنت آمل ذلك. وقرر البدء في العمل. بأدواته القاسية صنع قدمين أولًا. كسّر ما بينهما وأزال الزوائد ثم ظهرت ساقان. برفق كان يعمل. وبرفق استدارت الساقان. ثم استغنى عن القدمين القديمتين. القدمين المعيبتين. وبرفق صنع قدمين أخريتين. قدمين أكبر حجمًا. قدمين تنتعلان نعلين قويين. فلا يليقان بي. لا يليقان بي وأنا ضعيف. لا يليقان بصبي هش.

ظل الرجل النحيف يعمل في جسدي. وجسدي نائم في رواق البيت. ظل يعمل طويلًا. ليلًا ونهارًا. أكل بجواري. شرب بجواري. نام بجواري. وكان يتطلع إلي من نافذته. يتطلع من شرفته. يمسح زوائدي بقماشة. ويجلس يحدثني. يحكي لي ما يريده مني. يتمنى لي الدوام والأبدية. قال إنني ابنه. ابنه الذي لم ينجبه من ظهره. حكى لي عن أطفاله الآخرين المنتشرين الآن في الميادين. حكى لي عن تاريخي الذي يعرفه. يعرفه ولا يعرفه. ومن حكاياته عرفت مستقبلي. من حكاياته أثير فضولي. كنت أريد أن أسأله عن أمي. كنت أريد أن أسأله عن أبي. كنت أريد أن أسأله هل يمنح الحياة لأنواع أخرى من الحجارة. لم أسأل ولم يسمع. وربما سألت ولم يسمع. وربما سمع. سمع دون أن يجيب. وربما أجاب دون أن أسمع. أجاب وأنا أفكر في أمي. أفكر إن كانت أمي من حوّلتنا لأحجار. ربما حوّلتنا كطوق نجاة أخير. أن تعيش حجرًا خير من أن تموت إنسانًا.

36

أوراق مانويل دي موليتا

طليطلة/ 1609

(5)

صانع التماثيل فعل معجزات. فعل معجزات حتى لا يكسر ذراعًا أو إصبعًا. تحرك بأدواته برقة ملفتة. سار كأنه يرى جسدي الحقيقي. أزال كل الزوائد برفق. برفق كما يليق بنحات طيب. كما يليق بأم تقص أظافر رضيعها. لكنه جعلني أكثر سمنة. شكّل جسدًا أكثر فتوة. احتملت كل ذلك بتسامح. احتملته بصبر. فكرت في أني ربما يجب أن أكون رجلًا. فكرت في أني يجب أن أكون رجلًا. لا يمكن أن أتوقف عند مرحلة

الصبي. يجب أن أكبر. أن أنمو. أن أقوى قليلًا.

ثم حدث أن ألبسني بدلة حربية. ثم نحت وجهًا مختلفًا عن وجهي. أزال الحجارة الصغيرة عن عينيّ وفتحتَي أنفي. صنع تعرجات لأذنيّ وتجاعيد لوجهي. كان وجه رجل أربعيني أو خمسيني. ثم صنع لجسدي درعًا طويلًا ووضع فوق رأسي خوذة. ثم تنفست في النهاية أيًا كان الحال. شعرت بأني أرى العالم. شعرت بأن العالم يراني.

بقيت في مكاني بعد تشكيلي. وكان صانع التماثيل يمر يوميًا لوضع لمسة بسيطة. لإزالة بقايا تراب. لسنفرة جزء ما. كل ذلك وأنا نائم على ظهري. كل ذلك وأنا أتطلع للسماء لأقرأ فيها مصيري. مصيري الذي لم أتبينه أبدًا. مصيري الذي تبينته من المرة الأولى التي لمسني فيها. كنت أود حينها أن أرى وجهي في مرآة. أن أرى كيف صرت. كنت أتساءل إن كنت قد بت شبيهًا لأبي. كنت أتساءل إن كان وجهي الجديد يشبه وجهي القديم. كنت أتساءل ولا أعرف. وكيف لي أن أعرف وأنا حتى لا ألمس وجهي بيدي.

ظللت في حيرتي أيامًا. ربما شهورًا أو سنوات. طلعت شموس وغربت. أطلت أقمار وتوارت. وفي يوم اقترب الرجل النحيف. اقترب مني وابتسم لي. قال أنت اليوم صرت كاملًا لا ينقصك شيء. لا ينقصك إلا أن تقف في الميدان. ثم غلفني في أوراق. حجب عني النور. حجبه ورحل. عشت أعمى. والأعمى لا يرى إلا خيالات. الأعمى لا يرى إلا ماضيه. لكنني لم أكن أصمًا. كنت أسمع كل الدبابات حولي. كنت

أرهف السمع لكل من يأتي بسيرتي. وفي المساء يأتي حارس لي. يأكل ويشرب بجواري. يحكي لي حكايات بصوت خفيض كأنه يحكيها لنفسه. روى ذات مرة أن أجداده جاءوا هنا لأن الملك رودريك، ملك القوطيين الغربيين، اغتصب فتاة. وكانت الفتاة ابنة حاكم سبتة واسمه دون يوليان. كان يوليان في إجازة استجمام في طليطلة. وكانت ابنته تستحم في "حمّام كابا" يوم رآها رودريك وفُتن بها. حينها قرر يوليان أن ينتقم من الملك. حينها دعا المسلمين لدخول شبه جزيرة آيبيريا وساعدهم على الانتصار في معركة وادي لكة. يقول الحارس إن دخول أجداده لم يكن مخططًا له. إن طموحهم لم يبلغ عبور جنوب البحر والاستقرار في شماله. لكن الدعوة أغرتهم فشعروا بالانجذاب. يقول الحارس إن الأحفاد الآن يهجّرون من بيوتهم إلى بلد آخر. إلى أرض أخرى. يقول إنه لا يدري إن كانت خدماته للكنيسة والملك ستعصمه من مصير بقية أهله أم لا. وأنا من خلف عماي أنظر إليه. يُخيل لي أنه عم أعرفه. يُخيل لي أنه عم يحس بي. عم ربما يتحوّل إلى حجر ذات يوم.

لماذا اختفى صانع التماثيل بعد أن منحني الحياة. ولمَ لا يحكي لي الحارس عن مصيري. لماذا تخلى النحات عن صنيعته. ولماذا يحكي لي الحارس تاريخي.

مرت أيام أو شهور أو سنون. مرت ثقيلة وأنا أبكي من تحت الغطاء. ثم جاء عدة رجال ورفعوني. وضعوني في عربة وسارت بي. سارت وأنا من تحت غطائي أنتظر مستقرًا جديدًا.

37

أوراق مانويل دي مولينا

طليطلة/ 1609

(6)

توقفت العربة في ساحة "سوق الدواب". ساحة كنا نزورها لنشتري أغنامًا. كنا نزورها لنلتقي بأهالينا هنا. الساحة على هيئة مفتاح الحياة. دائرتها أمام "قوس الدم". وخلفه طريق يؤدي إلى جسر القنطرة ونهر التاجو. سنون مفتاح الساحة طريق يهبط باتجاه "باب الشجرة" وبوابة الفونسو السادس. ساحة مزدحمة بالضجيج. ضجيج صنعوا بداخله ساحة. وأنا أوقفوني بين الدائرة والسنون. أوقفوني وأنزلوني. أنزلوني وعرّوني. نزعوا

الأوراق عن جسدي سريعًا. نزعوا الأوراق و نفضّوني بالقماش. وفي لحظة انتبهت وابتسمت. انتبهت لوجود صانع التماثيل أمامي وابتسمت. نظر لي وابتسم. قال للعمال انظروا. انظروا التمثال يضحك. نظر العمال وابتسموا وقالوا التمثال يضحك. كنت مبتسمًا وسعيدًا. كنت كأني عدت إلى وطني. كنت كأني عدت إلى رحم أمي. أمي التي لم أعرف أين اختفت. أمي التي لم أكن أعرف إن كنت سألقاها مرة أخرى. قال صانع التماثيل للعمال انظروا. انظروا التمثال كثّر وجهه. قال هيا ارفعوا التمثال إلى القاعدة. قال هيا وانتبهوا جيدًا حتى لا تجرحوه. قال و أنا أفكر ماذا سيخسر الحجر لو انجرح بعد أن صار تمثالًا؟ قال لهم و كان بجانبهم. بجانبهم في كل خطوة. واستقر جسدي هناك. فوق قاعدة جرانيتية. منتصبًا و أشير بإصبع السبابة للأمام. بظهر مفرود ونظرة متعالية. بصدر ممتلىء بالقوة. بشعور بالزهو المفرط. بمفتاح الحياة يحيط بي و أنا مركزه. لكن أيضًا بشعور بالخواء. خواء لا يمكن أن يملأه شيء. بشعور بأني أحمل وجهًا ليس وجهي. بأني أرتدي ثيابًا ليست ثيابي. بأني استعرت هيئة آخر. آخر ليس أنا. وأنا لا أجلني بداخلي. وخارجي لوحة مثل شاهد قبر. شاهد يحمل اسمًا وتاريخ ميلاد ووفاة. اسمًا ليس اسمي. تاريخًا لا ينتمي لي.

38

أوراق مانويل دي مولينا

طليطلة/ 1609

(7)

في أيامي الأولى كتمثال كنت أشعر بالحيرة. المارة يجلسون عند قاعدتي. يتبادلون كلمات سريعة ويستريحون في صمت. بعض المارة يقفون أمامي. ثم ما لبث الأطفال أن تسلقوني. وبدأ المراهقون يكتبون أسماءهم على جسدي. أسماءهم مع قلوب. لكن الأمر لم يتوقف عند ذلك. مع الأيام صار المارة يتبولون على قاعدتي. والصبية ينشنون صوب عينيّ بأحجارهم الصغيرة.

الآن أنا أكثر عزلة. أكثر عرضة لحرارة الشمس وبرودة الشتاء. الآن أنا يتيم. يتيم منذ غاب عني صانع التماثيل. هل أحجار البنايات تشعر بنفس شعوري. أم أن التحام كل حجر مع الآخر يكفيه لتجنب الألم. لاكن منصفًا: كل شيء كان يحدث لي في نفس الوقت: اللعب والتبول والرجم وجلوس المارة والونس. ولأكون منصفًا أيضًا أقول إني كنت ناقصًا. لعمل التمثال تخلى النحّات عن أجزاء مني. وأضاف أجزاءً ليست لي. كم مرة نعيش دون ذراع ويُهيأ لنا أن ذراعنا في مكانها.

وذات يوم حدث ما لم أفهمه. رأيت حشودًا تدخل الساحة وتهتف. حشودًا لم أر مثلها أبدًا. حشودًا كانت تتجه صوب دائرة مفتاح الحياة. كانت تتجه فتوقفت فجأة. توقفت واقتربت مني. اقتربت فعرفتها. إنهم أهلي. بعض أقاربي. اقتربت الحشود ورجمتني بالحجارة. بصقت على وجهي. ضربتني بالعصي والحديد. ضربتني وبكيت. لم أبك من الألم. لم أبك من العنف. بكيت لأني عجزت عن أن أقول من أنا. عجزت أن أقول لست أنا من تظنون. أن أقول إني أحمل هيئة لا تنتمي لي. اسمًا ليس اسمي. تاريخًا ليس تاريخي. وفي لحظة سحبوني من فوق قاعدتي. أسقطوني أرضًا وأهانوني بأقدامهم. قالوا الله أكبر. وأصبحت مائة حجر. مائة قطعة. رأيت ذراعي بجانبي. رأيت ساقي في ركن بعيد. قلت لهم أنتم في المعركة الخاطئة. قلت فلم يسمعوا. قلت وعذرتهم. الخائف يقتل فيما يكتفي الشجاع بالضرب كعقاب. العنف ابن شرعي للهرع. المهزومون لا يعرفون إلا الرعب. أثناء ذلك فهمت إلى من تحولت. أدركت كيف صنع مني صانع التماثيل قاتلًا حربيًا. مجرمًا يسفك الدماء. وأنا، أنا من أنا، محض حجر بري.

ثم مرت أيام أخرى. أيام استخدمني فيها أفراد الحشود كدروع واقية. كسهام قوية. كسروا ساقي لأكثر من قطعة. ضربوا بأجزائي آخرين يهاجمونهم. ثم صار جسدي غارقًا في الدماء. دماء تكسوني دون أن تكون دمائي. ثم انتهى كل شيء كأن لم يكن. ثم حدثت المفاجأة.

تطلعت من مكاني لعربة أعرفها. عربة توقفت عند سنون مفتاح الحياة. عربة هبط منها صانع التماثيل النحيف. عربة هبط منها عدد من العمال. والعمال أنزلوا تمثالًا. والتمثال كان ملفوفًا في ورق. والتمثال عرّوه العمال. والتمثال كان أنا. أقصد ما كنت أقوم بدوره. والتمثال نظر إلي وبكى. وأنا نظرت للتمثال وبكيت. قال الرجل النحيف للعمال انظروا. قال التمثال يبكي. بينما كنت أنا وأبي نتذكر ونتبادل نظرات سرية.

39

أوراق عائشة بنت مريم بنت عبد الله دي مولينا

(عائشة دي مولينا)

كوينكا/ 1528

(1)

في الصباح، يسقط مني ذراع. وفي الظهيرة، أستعير ذراعًا خشبية. وفي المساء، أعتاد الذراع الخشبية. وفي الصباح، أشعر أن الذراع التي تسقط مني الآن، ذراع طبيعية.

في الصباح، كل صباح، أستيقظ بذراعين. مثل الناس، كل الناس،

أستيقظ بذراعين. أطل من النافذة، نافذة تطل على شارع مزدحم، بذراعين. ألوّح، بذراع يسرى، إلى المارة. ألوّح، بذراع يسرى، ليعلموا أن لدي ذراعًا تتحرك.

يحدث ذلك، ذلك كله، في وقت مبكر. تكاد الشمس، شمس الصباح، أن تشق الليل. مع ذلك هناك زحام. مع ذلك أطل من النافذة. أطل من النافذة، نافذة كبيرة، وألوّح بذراع. ألوّح إلى المارة، كل المارة، وإلى لا أحد. تطير تحيتي، تحيتي المحتجبة، وتسقط فوق لا أحد. المارة، وكلهم مارة، لا ينظرون نحوي. يسيرون، بخطوات سريعة يسيرون، صوب هدف غامض. الهدف الغامض، الغامض لي، واضح لديهم. بينما أنا، أنا وحدي، أتطلع إليهم. بينما أنا، أنا وحدي، أعرف أنني موجودة هنا. بينما أنا، أنا وحدي، يسقط مني ذراع.

في الصباح، أقف أمام المرآة. وفي الظهيرة، أنظر لوجهي في نهر صغير. وفي المساء، أنظر لي فلا أراني. وفي الصباح، أسترد نفسي من جديد. أسترد، أو يهيأ لي.

في الصباح، كل صباح، أسحق بثوري. أضغط بإصبعين، السبابة والإبهام، على ورم وجهي. وورم وجهي، وجهي المستدير، يجأر من قسوتي. بثور وجهي، الصغيرة والكثيرة، تنتقم مني بالألم. البثور، التي اقتحمت وجهي بين ليلة وضحاها، صارت لوجهي مضافًا إليه.

أثناء ذلك، ذلك كله، انتبه إلى تشققات النافذة. أثناء ذلك، انتبه إلى أن الموعد حان. أخرج من البيت، البيت الصغير، في اتجاه الشارع الترابي.

أخرج من البيت، البيت الصغير، دون أن أعرف وجهتي. اليوم، مثل كل يوم، أخرج دون أن أعرف وجهتي. أسير، وحدي أسير، بذراعين تتوازيان. أسير، وحدي أسير، رغم أن الشارع مكتظ بالمارة. المارة، والراكبون كذلك، لا ينتبهون لي. وفجأة، رغم أنه حدث متكرر، يسقط مني ذراع.

في الظهيرة، في منتصف الظهيرة، أركّب ذراعًا خشبية. لا يحسبها المارة، ولا الجالسون، ذراعًا خشبية. لا يحسبونها، وأعلم أنهم لا يحسبونها، لأنهم لا ينتبهون لي. مع ذلك أحرص على امتلاكها. أمدها، إن لزم الأمر، ليد أحد. أمدها، كعادة ثابتة، لتشعر بالونس. أحرّكها، أكثر من الأخرى، لتمتلئ بالثقة. وأسير، وحدي أسير، لقبلة مجهولة. أعتلي، بتلقائية طفل، تبة عالية. أجلس، بتلقائية طفل، على ضفاف نهر صغير. أنظر، بعين مندهشة، إلى وجهي على صفحة الماء. أنظر إلى السائرين بعيدًا. السائرين، على العكس مني، لقبلة يعرفونها. يصطحبون، بعضهم يصطحب، كلبًا. يصطحبون، بعضهم يصطحب، قطة. يستبدلون، بعضهم يستبدل، الحيوانات بالعائلة. لكن أحيانًا، لأكون منصفًة، أرى جدًا بصحبة حفيد.

وفي المساء، كل مساء، توانسني الذراع..بمرور الوقت، الطويل أو القصير، اعتاد عليها..بمرور الوقت، أعتقد القصير، تصبح أليفة. أتحدث، ناظرة إليها، فتبتسم. أبتسم، ناظرة إليها، فتضحك. أألفها أكثر من الطبيعية. لا تشعر، ولا أنا كذلك، بأي غربة. تتشابه، عن يقين أقول، مع ذراعي الأخرى. تتشابه مع الذراع المفقودة. تتشابه، عن يقين أقول، لكنها ليست هي. لا تحمل، على سبيل المثال، ذكريات. ينقصها، كنتيجة طبيعية لحداثتها، خطوط الكف.

من خلالها، يعرف ذلك العرافون، لا يمكن قراءة المستقبل. لا المستقبل، وبالطبع، لا الماضي. تتشابه، نعم، غير أنها مستقيمة. أقصد، لأكون منصفة، لا تعرف المرونة. ينقصها، دون أن يكون ذلك نقيصة، حمل بصمني. مع ذلك، ذلك كله، أعتاد عليها. تصبح، كما أصبح لها، جزءاً مني.

قبل النوم، كطفلة، أحكي لها حواديت. أقول لها، مثلاً، كان لنا أغنية وضاعت. أقول لها، مثلاً، كان لنا رقصة وضاعت. أقول لها كان لنا لسان وضاع. أحكي لها، مثلاً، حكايات مرعبة. حكايات، كما ترى، عن قوم يعبدون الدم. يصنعون منه بركاً، ويغتسلون فيها. يتطهرون من دنس أجسادهم في برك الدماء المسفوكة. وفي الليل، يقدمون للبِرك قرابين جديدة.

أحكي لذراعي عن تماثيل متحركة. لا أقصد، وربما أقصد، أن أصنع لها ذاكرة. وأظن، كامرأة متفائلة، أن يجري فيها الدم. الدم، المهدر في الطريق، قد يبلغ ذراعي. قد يبلغ ويصوب فيها الحياة. وأظن، دون إثم، أن بها دماء. لا أعرف، وربما أعرف، أنها كانت لآخر. وأصدق، وأحياناً لا أصدق، أن لها ذكريات. المؤكد، رغم أنه غير مؤكد، أنها تسمعني. وفي الليل، منتصف الليل، تعانقني بقوة. وأحياناً تتحسس وجهي. تتحسسني بدلاً من كف أمي. أمي، كما تعلم ذراعي، قُتلت أمام عيني. أمي، كما تعلم ذراعي، انتهت فوق مقصلة في الميدان.

كعضو دخيل، وربما هي ذراع أمي، تشعرني بالرفقة. جزء من شخص يصطحبني أينما تجولت. جزء يشبه، مع فارق التشبيه، حفيد الجد. جزء

يشبه، مع فارق التشبيه، كلب السيدة. جزء يشبه، مع فارق التشبيه، قطة الفتاة. عضو، بوصف دقيق، بديل. ليس بديلًا، لأكون واضحًة، لعضو. بل بديل، لأكون واضحًة، لوجود. عضو يشبه، من بين ما يشبه، المعنى للعبارة. عضو يشغل، من بين ما يشغل، مكان الدلالة. ذراعي الخشبية، بحسب فهمي، ليست مزيفة. ذراعي الخشبية مختلفة المادة. لكن الاختلاف، كما أعرف، لا يعني التزييف. ذراعي الخشبية، على عكس الطبيعية، لا تؤلمني. ذراعي الخشبية، على عكس المفقودة، لا تنزف دمًا. ذراعي الخشبية، دون ضجيج، تمنحني الكمال.

في الصباح، أقف في النافذة. ومن النافذة أتطلع للمارة. ألوّح، كعادتي، للا أحد. ألوّح بذراع أعلم أنها ستسقط بعد قليل. وأصدق، وحدي أصدق، أنها طبيعية. أحركها، من دقيقة لأخرى، لأنها طبيعية. أهدهدها، من دقيقة لأخرى، لأنها طبيعية. وأسير، في الشارع أسير، وحدي أسير، بيقين أنها الطبيعية.

40

أبي مات.

جاءني في الليلة الأربعين. قبّلني على جبيني وأنا نائم. شعرت بدفء أنفاسه وحركته البطيئة. نظرت إليه بكسل وابتسامة. في الصباح، ما إن نهضت ودخلت غرفته حتى وجدته ممددًا. ممددًا على سريره. سريره في الطابق الأرضي، وليس في الغرفة العلوية السرية. بجانبه، لمحت ورقة مطوية. لمّا فتحتها كانت بيضاء. ليست بيضاء تمامًا، كان بها بقايا حبر. الورقة الجديدة، بحسب ما رأيت، كان بها كتابة قديمة. كتابة أزيلت بطريقة لا أعرفها. هل الكتابة أزيلت أم لم يكن لها وجود؟ هل الكتابة أزيلت أم لا تزال موجودة لكني لا أراها؟

تركت الورقة في مكانها واقتربت من أبي. كان مغطى حتى رقبته. هيئ لي، لأني لم أر ميتًا من قبل، أنه نائم. غير أن وجهه، الذي بدا الآن مستريحًا، على عكس كل الأيام الفائتة، وشى به. تأملته لدقائق في صمت قبل أن أقول لنفسي، وربما أقول له، أبي مات. كررتها لعدة مرات، وفي الرابعة بكيت. بدأت، في لحظة واحدة، أشعر باليتم. خطرت أمي على بالي واستحضرتها ذاكرتي من بعيد. في تلك اللحظة بالذات، تذكرت كل ملامحها وهيئتها وصوتها ومشيتها. حتى جلبابها السماوي تذكرته. بحركة لا إرادية، فتحت الشباك. فكرت، في لحظة حزني، أن أمنح أبي نسمة هواء أخيرة. ولمحت، وأنا أطل على الشارع، شعور الكِبَر يتسلل إليّ. نشيخ يوم موت الأب، سمعت العبارة تهمس في أذني، كأن الأب بحياته يمنع الشيخوخة عنا.

حضر الجيران لإنهاء إجراءات الدفن. وأصر الحانوتي على أن أحضر الغسل. كان أبي، رغم شيخوخته، يحتفظ بوسامة عهد قديم. حتى شعره الأبيض منحه وسامة جديدة. الحانوتي، بقلب متحجر، جرّده من ملابسه. أثناء ذلك، لاحظت ختمًا عند بطن أبي. داخل دائرة الختم المستديرة، استطعت قراءة كلمة "موريسكي". نفس الكلمة المطبوعة على بطني. نفس الكلمة التي ربما أجدها عند بطن أمي. سال الماء والصابون على جسد أبي للمرة الأخيرة. سال فيما كنت أساعد الحانوتي بالقبض على الجسد الميت. لمست على شعر أبي وسقطت مغشيًا عليّ.

أثناء الاغماءة، رأيتني بصحبة أبي وأمي، نسير في مدينة شوارعها ضيقة

وبيوتها منخفضة. كنت صغيرًا جدًا، محمولًا على كتفيّ أبي، بقدمين تصلان إلى قرب بطنه. أتطلع للشارع ببهجة من يكشفه من مكان مرتفع. فيما كانت أمي لا تتوقف عن النظر إلي والابتسام. فجأة، وأمام بيت يحمل رقم 97، توقف أبي. أشار بيده اليمنى إلى البيت والرقم. قال: بيتنا. بعد أن تجاوزناه، التفتُّ خلفي لأحفظ الرقم، فلمحتني واقفًا في الشرفة، أتطلع إليّ بنظرة بائسة، بحزن عميق. بوصولنا لأول الشارع، كانت أمي اختفت. لما سألت أبي، بضربة من قدمي، لم يجبني. صعدنا لشارع مرتفع حتى وصلنا لساحة صغيرة. بالساحة، كان ثمة كاتدرائية ضخمة. أشار أبي إليها بسبابته وقال كلمات لم أسمعها. أمام الكاتدرائية، كان ثمة مسرح منصوب وحشد من الناس. فوق المسرح، كان المغنون متحمسين والموسيقى مرتفعة. في شارع آخر مرتفع، واصل أبي السير. كان الشارع طويلًا وبدأت أشعر بثقلي على كتفي أبي. حاولت أن أقنعه بالنزول، فرفض. فوق تل مرتفع، شديد الارتفاع، توقف أبي عن السير. أشار بسبابته مرة أخرى إلى الأمام، إلى البيوت المنحوتة في الصخر. وأشار إلى الخلف إلى دكان كبير ومغلق، خشبه عتيق لكنه متماسك. هناك، أنزلني أبي من فوق كتفيه. قال "هذه ورشة جدك عبد الله". وتركني واقفًا، واختفى.

41

ترك لي أبي عقدًا للبيت ومجموعة صور ورسومات له.

أبي مات، والبيت بعته. و لم يتبق لي إلا عقد وصور ورسومات. لم يتبق إلا ظلال الأشياء التي كنت أظنها فانية.

كيف تحول البيت إلى محض عقد. وكيف غدا أبي محض صورة بالأبيض والأسود؟

42

من أوراق عائشة دي مولينا

كوينكا/ 1524

(2)

أوصتني أمي، رغم رحيلها، أن أهدم البيت. قالت، من ضمن ما قالت، قوّضي البيت. قالت، ويا ليتها ما قالت، قوّضيه لآخر حجر. أوصتني أمي، على عكس عادتها، بفعل شيء. أمي، التي لم تأمرني في حياتها، توصيني. أمي، التي لم تأمرني، تأمرني. جاءت، على عكس عادتها، بجلباب ملون. أمي، لمن يعرفها، لم تكن ترتدي إلا الأسود. جاءت، بعد عشرين سنة، بوجه رائق. جاءت، بعد عشرين سنة من الرحيل، بوجه شاب. جاءت بجديلتين

على صدرها. جاءت، في لحظة يأس، لتوصيني بهدم البيت.

البيت، الموصى بهدمه، بيتنا. البيت، القوي المتماسك، يتكون من ثلاثة طوابق. البيت، القديم رغم ذلك، شيده جدي. جدي، لمن لا يعرف، أبو أمي. أمي، لمن لا يعرف، مريم بنت عبد الله بن محمد دي مولينا. جدي، لمن لا يعرف، كان صاحب ورشة حدادة، كان صاحب مكتبة كونكة. مكتبة كونكة، المنحوتة في الصخر، المليئة بالأسرار. مكتبة كونكة، المنحوتة في الصخر، الواقعة في قبو تحت البيت.

أمي، على عكس جدي، كانت تخشى المكتبة. أمي، على عكس جدي، لم تقترب من المكتبة. جدي، لثراء معروف مصدره، شيّد بيتًا. جدي، لأمور نفسية، اختار مدينة هامشية. جدي، لأمور عملية، شيّد ثلاثة طوابق. فكر جدي، على ما أظن، في طابقين لابنتيه. فكر جدي، ربما بعد ذلك، في شراء بيت لعاصم ومحمد. عاصم ومحمد، لمن لا يعرف، خالاي. لكن القدر، القدر الغامض، أبقى ابنة واحدة. الابنة الأخرى، خالتي، ماتت طفلة. أمي، رغم خشيتها من المكتبة، عاشت في البيت. أمي، رغم خشيتها من المكتبة، تزوجت في البيت. أمي، رغم خشيتها من المكتبة، أنجبتنا في البيت. أنجبتا، أختي وأنا، في البيت. أختي، مثل خالتي، ماتت طفلة. أختي، مثل خالتي، لم أرها. أختي، بحسب أمي، ماتت قبل مولدي بعامين. وأنا، مثل أمي، بقيت في البيت. بقيت، مثل أمي، أخشى المكتبة.

أمي، برحيل مبكر، اختفت منذ عشرين سنة. أمي، خلال تلك السنوات، اختفت تمامًا. أقصد، لأكون دقيقة، اختفت من الأحلام. يوم رحلت أمي، حتى لا أقول ماتت (هل الإعدام شنقًا موت؟)، انقطعت عني. انقطعت،

أقصد، انقطعت للأبد. أبي، على عكس أمي، كان يزورني في المنام. أبي، رغم اختلافنا، كان يزورني. أمي، رغم تقديسي لها، غابت. جدي، يجب قول ذلك، أتذكره من الصور. البيت، بيتنا، لم أحلم إلا به. أنا، ومن أنا، أعيش باستحضار الموتى. الموتى فوق الألواح الخشبية. الموتى بأوامر القساوسة. الموتى بمرسوم الملك.

42

من أوراق عائشة دي مولينا

كوينكا/1524

(3)

أمي، ربما يفيد ذلك، رحلت في الأربعين. يعني، من ضمن ما يعني، أنها كانت في الثامنة والثلاثين. تذكّر، تذكّر معي، أمي عاشت باسم خالتي. تذكر، تذكر معي، أمي عاشت بشهادة ميلاد خالتي. تذكّر أن أمي عاشت حياة خالتي. تذكّر أنها عاشت حياتها بالنيابة.

لمّا رحلت أمي، حتى لا أقول ماتت، كنت في العشرين. ما يعني أني

كنت في الثامنة عشرة. تذكّر، تذكّر معي، أني أعيش باسم أختي. تذكّر أني أعيش بشهادة ميلاد أختي. تذكّر، تذكّر معي، أني أعيش حياة أختي. أعيش حياتها بالنيابة. إذن، بعد عشرين سنة، تزورني أمي. أمي، وأنا في الأربعين، تزورني. تزوني، وبحسم، توصيني بهدم البيت. توصي أختي؟

صورة أختي مرسومة، رضيعة، على الحائط. صورة أختي مرسومة، واقفة، على الحائط. صورة أختي، مثل قطة تنظر لأعلى، على الحائط. وصوري، في نفس الأوضاع، بجانب صورها. صوري، في نفس العمر، بجانب صورها. وفي الصور، أختي وأنا، نتشابه. في الصور، أختي وأنا، نبدو كتوأم. في الصور، أختي وأنا، نبدو نفس الطفلة. على الحائط، حائط الممر، أنمو وحدي. على الحائط تتوقف أختي عن النمو. على الحائط أبتسم كشابة. على الحائط، نفس الحائط، أضحك بانتصار. على الحائط أقف أمام المكتبة. على الحائط شعري يشيب. على الحائط، حائط الممر، تحتفظ أختي بطفولتها.

في لحظة، لحظة نادرة، أشعر بالفخ. أشعر، مثلاً، بأن من مات هو أنا. أشعر، مثلاً، بأنني أختي. أشعر، ويهيأ لي، أنني أختي. أن أختي، أختي نفسها، من تعيش هذه الحياة. أنني، أنا نفسي، أتطلع لأختي من القبر. وأحياناً أشعر بفخ آخر. أشعر، من ضمن ما أشعر، بأن أختي وهبتني الحياة وهربت. أشعر، ويهيأ لي، أن المقايضة حدثت دون إرادتي. أشعر، ويهيأ لي، أنني الخاسرة في هذه المقايضة. أشعر أن أمي تآمرت عليّ. أقول، بالتأكيد أقول لنفسي، إن أمي أورثتني مصيرها. أقول إن أمي لم تورثني مصيرها.

أقول، أقول لنفسي، إن خالتي من فعلت ذلك. أقول لأن أمي لم تكن أمي. أمي، كما أعلم، كانت خالتي. أمي كانت خالتي مثلما أنا أختي. أنظر، الآن أنظر، لضحكة أختي. أدرك، كما أحياناً أدرك، أنها تسخر مني. كان أختي، كتأويل آخر، أدركت الحياة. أدركت لمّا عاشتها من بعيد. أنظر، الآن أنظر، لابتسامتها البريئة. وأدرك أنها سعيدة. أدرك، في تيهي، شرود أمي. أفهم الآن، وليس قبل ذلك، حكايات أمي عن أختها.

43

من أوراق عائشة دي مولينا

كوبنكا/1524

(4)

في الحائط، الحائط المقابل، صور أمي. في الحائط صور خالتي. أمي وخالتي على الحائط، طفلتان جميلتان. أمي وخالتي، في صور منفصلة، تضحكان للحياة. ثم أمي، أمي وحدها، شابة. ثم أمي في ليلة الزفاف وحولها يرقصون الثامبرا. ثم أمي تحمل رضيعًا. لا أعرف، تحديدًا لا أعرف، هل أنا الرضيع أم أختي. أحيانًا، أحيانًا كثيرة، أمي كانت تنظر لخالتي. أمي، في القرارات المصيرية، كانت تنظر لخالتي. كانت تسأل،

من ضمن ما تسأل، إن كان سيسرها ما تفعله. كانت أمي، لآخر لحظة، تعيش بالنيابة عنها. وأنا، في مكاني بصحن البيت، أنظر لصورة أختي. أنظر إليها، الآن تحديدًا، لتدلني في هدم البيت.

أمي، في ظهورها الطيفي، كانت قاطعة. كانت، مثلما كانت في الحياة، قاطعة. أمي، بجمال يفتك القلب، قالت وصيتها. أمي، بعد الموت، صارت أكثر شبابًا. أيكون الموت، بحسب ما رأيت، دوران عجلة الزمن للخلف؟ أيكون الموت، بدليل أمي، الحياة في زمن آخر؟ أبي، في ظهوراته، كان شابًا. لكن أبي، حتى في نضجه، كان شابًا. أبي، يوم رحيله، كان شابًا. أمي، رغم جمالها، كانت ناضجة. كانت تبدو، لمن يعرفها، امرأة ناضجة. هل أختي، مثلًا، تلتقيها هناك. هل أختي، مثلًا، تلتقيهما هناك. هل هناك، مثلًا، يكوّنون عائلة. هل أنا، بالنسبة لعائلتي هناك، محض ميتة؟

وصية أمي، بحسب ظاهرها، هدم البيت. لكن البيت، في ظني، ربما يكون الحياة. هدم البيت، ربما، رمز لهدم الذاكرة. هدم البيت، ربما، محو أثر جدي. ربما محو أثر أبي. ربما محو أثري. الطابق الأول، طابق جدي، لا يزال مغلقًا. لا يزال يحتوي على وثائق سرية. وثائق، أو مخطوطات، تحكي تاريخًا مجهولًا. جدي، ومثله خالي محمد وعاصم، وأخي مروان، يكتبون مذكرات. وأنا، مثل جدي وخالي وأخي مروان، أكتب مذكرات. وأمي، ضدي وضد جدي وضد خالي، تخشى التدوين. أمي ترى، من ضمن ما ترى، أن الماضي خطر. لكن أمي، مثلي، كانت تعيش في بيت مشيد فوق مكبة. الوحيد الناجي، من هذه المتاهة، هي أختي. الوحيد الناجي، من

كل الفخاخ، هي أختي. أختي، وحتى لا أنسى، خالتي.

أتكون أختي، في الحقيقة، هي من نجت؟ ألا أكون أنا، في الحقيقة، من نجوت؟ ألا تكون أختي من تحيا الآن؟ ألست، بتبني اسم أختي وتاريخ ميلادها، أحيا حياتها؟

وصية أمي، إذن، غير شرعية. الوصية، بحسب الأصول، يجب أن تأتي من أختي. يجب، بشكل مباشر، أن توصيني أختي. أن توصيني، كما أمي أو بدلها، بهدم البيت. لكن أمي، أمي نفسها، ليست أمي. أمي، أمي نفسها، هي خالتي. هذا احتمال، احتمال وجيه، مثل احتمال ظهور أمي.

الآن أتحرك، لا إراديًا أتحرك، وأنا أفكر في ذلك. أبحث، بجنون، في القبو. أفتح، كمن يسابق الزمن، كل المخطوطات. أجمع الصور المرسومة استعدادًا للرحيل. أجلس، مرهقة، على الأرض. أسحب، بيديّ الاثنتين، صناديق الوثائق. أقرأ، بضمير مستريح، توقيعات باسم أختي. أثناء ذلك، ذلك كله، أفهم وصية أمي. أمي، على عكس الظاهر، لا توصيني. أمي، في العمق، توصي أختي.

من الشباك، الشباك الصغير، أتطلع للشارع. في الشارع رؤوس معلقة في مقاصل. في الساحة، ساحة كوينكا، رؤوس أقاربي تتساقط. الرؤوس المعلقة، بصوت يستنجد بالحياة، تقسم أنها لم تصم رمضان. الرؤوس المعلقة، في يأس، تودّع الحياة. وأمي، بينما يتجول طيفها في الساحة، تأمرني بهدم البيت. وأنا، مثل جدي، أدس في القبو مخطوطًا جديدًا.

44

الموريسكيون في الأندلس

https://www.youtube.com/watch?v=EFpv0tQm5jA

45

من أوراق عائشة دي مولينا

كورينكا / 1530

(5)

صارت الأرض، كل الأرض، مثل رمال متحركة. صارت الناس، كل الناس، تتصارع للسير فوقها. صارت الناس تتصارع من أجل السقوط فيها. وأنا، وحيدة كنت، أقف في شباك. وأنا، وحيدة كنت، أتطلع للشارع في خوف مميت. وفجأة، أو بشكل متوقع، كنت أصرخ. وفجأة، أو كما العادة، لم يخرج صوت من حنجرتي. حينها كنت أشير لهم. كنت أشير، كما العادة، بذراع واحدة في عجز. كنت أشير بحركات لم تحدث. كنت

أصرخ، كالعادة، بصوت مكتوم. وأنتفض، كالعادة، كما الجرس. لكنهم جميعًا، وفردًا فردًا، لم يلتفتوا. كانوا جميعًا، واحدًا واحدًا، يسيرون إلى قبلة يعرفونها. يعرفونها، وأنا كالعادة، لا أعرفها. كأنهم سيجتازون الأرض المتحركة للوصول إلى جنة مأمولة. كأن الجنة المأمولة، وربما كانت كذلك، تمنحهم شجاعة اجتياز الخطر. غير أنني، أؤكد ذلك، لم أكن أرى أي جنة مأمولة. ولم أكن، وربما كنت، أرى أحدًا يتمكن من العبور. وفي الخلفية، من ورائي أنا، كانت الصرخات. في الخلفية، من ورائي أنا، كانت صرخات الموت. وكان الموت، بحسب ما أسمع، في أراضي العالم أجمع. في أراضي العالم، ولأسباب مختلفة، كان الموت يتحقق. وكنت أرى السقوط التدريجي. وكنت أرى، وحدي أرى، السقوط الحتمي. أقدام تغرس، أقدام تتوارى، في أرض متحركة. أرض متحركة، وتبدو ثابتة، تبتلع من يعتليها. تبتلع، بحسم، من يعتليها. وكنت أرى، كمشاهد سلبي، اختفاء الأجساد. كنت أرى، كمشاهد سلبي، طلب النجدة. كنت أرى، كمشاهد سلبي، مشاهدين آخرين. كنت أرى مشاهدين بجوار المختفين. مشاهدين، مثلي، لا يمدون يدًا للنجدة. لا يمدون، كما ظننت، لأنهم سيلقون نفس المصير. لا يمدون، ربما، لأنهم مشغولون بالعبور.

أثناء ذلك، وربما قبله، وجدتني هناك. أثناء ذلك كنت فوق الأرض المتحركة. أثناء ذلك، أثناءه تمامًا، كنت أصارع من أجل العبور. كنت أصارع ويدفعني المجاورون. يدفعونني، بقوة يدفعونني، فأتدافع. يدفعونني فأدفع المتقدمين عليّ. وفي لحظة، لحظة حتمية، ابتلعتني الأرض. وفي لحظة، لحظة حتمية، نظرت نحو نافذتي. وفي لحظة وجدتني أصرخ بصوت مكتوم. وجدتني، بذراع خشبية، أشير من أجل النجدة.

كان جسدي، جسدي الضعيف، في رحلة تحت أرضية. وكانت رأسي تطل على العالم بحسرة. وحينها، بالضبط حينها، شعرت.ممن يتعلق بساقيّ. شعرت، وكثيراً ما شعرت،.ممن يسحبني لأسفل. يسحبني ويقول: هيا نهرب من الموت. ودون وعي، أو بوعي، تطلعت إلى نافذتي. تطلعت ووجدتني أصرخ بصوت مكتوم. ووجدتني، كالعادة، أشير بحركة عاجزة. فلمّا ركزت، ركزت النظر، أدركت. أدركت، دون مفاجأة، أنني في النافذة. أدركت، دون مفاجأة، أنني ميتة. أثناء ذلك غطتني الأرض حتى أنفي. أثناء ذلك لم يبق مني إلا عينان. عينان، باعتراني، شبه مغمضتين. أثناء ذلك تطلعت للنوافذ المجاورة. كان المتطلعون موتى. أفواههم، المفتوحة، بوابات للقبور. أياديهم، المتصلبة، يد فتاة ملبوسة.

خرجت، شاردة، إلى الشرفة. تطلعت، شاردة، إلى الشارع. رأيت، بعينين ذابلتين، سير المارة. المارة، بشرود أيضًا، كانوا يسيرون في هدوء. كانوا، على غير العادة، يتفرجون على البيوت المهجورة. المارة، على عكس العادة، كانوا يتبادلون التحية. كانوا يسيرون.بمفردهم. كانوا، بخوف مجهول، يتلفتون حولهم. المارة، في لحظة مفاجئة، بدأوا يركضون. بدأ، في لحظة مفاجئة، يزداد عددهم. بدأوا يتكدسون على شيء. يتكدسون، يتدافع، على شيء لا أراه. وفي دقائق، دقائق معدودة، تعالى ضجيجهم. وفي دقائق، دقائق معدودة، تطلع الجيران من النوافذ والشرفات. وفي دقائق، دقائق معدودة، بدأوا يتساقطون. بدأوا، واحدًا تلو الآخر، تبتلعهم الأرض. وفي دقائق رأيتني بينهم. رأيتني، وأنا أطل من الشرفة، تبتلعني الأرض. حينها، حينها بالتحديد، أدركت أني ميتة.

46

محاكم التفتيش تقبض على موريسكي

https://www.youtube.com/watch?v=rSmtX_ZoaEk

47

أوراق خوان بن مانويلا بنت عائشة دي مولينا

(خوان دي مولينا)

كوينكا/1609

(1)

سمعنا طبلًا كثيرًا ومناديًا ينادي:

- اجتمعوا أيها الموريسكيون.

من الشباك جاءنا الخبر: "صدر مرسوم ملكي بطرد الموريسكيين، كل الموريسكيين". المرسوم جاء باسم المسيحيين الجدد، أو المسيحيين من أصول

مسلمة. المهلة: ثلاثة أيام. وفي اليوم الثالث، في الصباح، علينا أن نصطف في الشارع حتى يأتي رجال الشرطة ليسوقونا إلى المراكب التي تحملنا إلى مصير جديد، إلى أرض لا نعرفها.

سألتُ ماريا: هل تعتقدين أن هذا المرسوم يشملنا؟ بنظرة شاردة وحزينة، أجابتني: بالتأكيد. هل يعني ذلك أنهم سيطردوننا من بلدنا؟ بكت ماريا. نهضتُ وركضتُ نحو الباب، فلحقت بي. عانقتها وقبّلتها في وجنتها. قلت لها يجب أن نقابل قس كوينكا الآن، يجب أن نستوضح منه المسألة.

بعد أن خطونا عدة خطوات، اقترحت ماريا أن نصطحب الأطفال معنا. "سيكون حسنًا أن نثبت له ببرهان إضافي أننا لسنا مسلمين". لأخفف عنها، ذكرتها، مبتسمًا وبيدٍ تطوّق كتفها، بأنها ليست من أصول موريسكية، "سيطردوننا جميعًا إلا أنتِ يا ماريا". غير أن العبارة، على النقيض من مقصودها، أثارت حزنًا أكبر.

- يا سيدي القس، قل لنا ماذا يعني المرسوم الجديد.

- المرسوم الملكي الصادر اليوم شديد الوضوح، أنت وعائلتك وأقرباؤك عليكم تجهيز أنفسكم للرحيل. في اليوم الثالث من الآن ستحملكم المراكب لأراض أخرى.

- لكنك تعلم أننا مسيحيون. لقد عمّدتنا بنفسك، وكنا نلتزم بالقداسات ولم نتغيب. رأيتنا في أسبوع الآلام. تبرعنا بصدقات

للكنيسة. نعلّق أيقونات القديسين على جدران بيوتنا. نذكر الرب في الصباح والمساء. أولادي تعمّدوا هنا. آبائي تعمدوا هنا. أجدادي تعمّدوا هنا.

- أعلم أنك مسيحي طيب، لم تقصر في شيء. لكن بعض المسيحيين الجدد ليسوا بمسيحيين. لقد ظلوا على إسلامهم، فلا هم يحضرون القداس ولا هم يأكلون الخنزير. بالإضافة لذلك، يصومون رمضان. لقد ضبطنا الكثيرين من الذين يتظاهرون بالمسيحية، لكنها لم تلمس أرواحهم. أرواحهم ظلت في ضلالها. أرواح يسكنها الشيطان. وبعد الكثير من محاكم التفتيش، لم يتوقفوا عن ممارسة الإسلام سراً. ليس في كوينكا وحدها، بل في غرناطة وقرطبة وبلنسية وجيان ومالقة وقادش والمريا. لقد تمسك الكثيرون بدينهم القديم، رغم مرور أكثر من مائة عام على اختيار المسيحية.

- ها أنت تقولها يا سيدي القس، بعد أكثر من مائة عام. كيف يُعقل أن نبقى بعد مائة عام من اعتناق المسيحية مسلمين؟ لقد تربينا في الكنائس، كبرنا في الكنائس، تزوجنا في الكنائس. ولا حتى نعرف اللغة العربية! ما يحدث الآن أن الإسبان يطردون الإسبان. الإسبان الآن لا يطردون العرب. الإسبان المسيحيون يطردون ما يظنون أنهم إسبان مسلمون. أنت تعلم ذلك جيداً. العرب كانوا الأجيال الأولى، أما بعد كل هذه السنوات والقرون فقد صرنا

إسبانا، منا إسبان مسيحيون ومنا إسبان كانوا مسلمين. اللغة التي نتحدث هي القشتالية. الأرض التي نعرفها هي كوينكا. الملابس التي نلبسها والعادات التي اكتسبناها، والتقاليد التي نتبعها، كلها ابنة هذه الأرض.

- مرسوم الملك واضح بلا لبس: إسبانيا دولة كاثوليكية لا يتعايش بها إلا الكاثوليكيون، والأمر لا يخص كوينكا. لقد أثبت المسلمون أنهم لا يتخلون عن دينهم، وهذه الأرض لم تعد تسعهم. عليكم بالرحيل لإعداد أنفسكم، احملوا معكم ما يمكنكم حمله. انتظر، زوجتك وحدها لها حق البقاء لأنها مسيحية من أصول مسيحية. ومن حق أبنائك أن يبقوا مع الأم، فقط لأنهم أطفال، لا لأني أثق في مسيحيتهم وطهارة أرواحهم. أما أنت، ورغم اختباراتي لإخلاصك للمسيح، لا يمكنني أن أدافع عنك أمام الملك.

عند خروجنا من باب الكنيسة، قال القس بصوت أبوي "لو وددتم سماع نصيحتي، فلتبق ماريا مع الأولاد".

- ويرحل أبي؟

- نعم يا ميجيل، أبوك سيرحل.

- سيرحل لأن أجداده مسلمون؟

- نعم يا ميجيل، سيرحل لأن أجداده مسلمون.

- إذن، سأرحل أنا أيضًا مع أبي، لأن أجدادي مسلمون.

- اسكت يا ميجيل، لا يصح أن تكلم أبانا هكذا!
- أبونا سيطرد أبي يا أمي. وأنا لن أبقى هنا لأنني مسلم مثل أجدادي.

في اليوم الثالث وقفنا في ساحة كوينكا منذ شقشقة الفجر. وفي ساحة كوينكا أمر القس ورجل الشرطة أن تبقى ماريا والأطفال، وأن يرحل برفقتي ميجيل.

48

هامش:

- في عام 1992، وافق البرلمان الإسباني على مقترح يمنح لليهود السفارديم المطرودين من إسبانيا عام 1492 حق العودة إليها والتمتع بجنسيتها.

- والموريسكيون؟

- ...!

49

لم تكن رحلتي إلى كوينكا سهلة على أية حال. ولا كان من السهل، في المقابل، البقاء في مدينتي. جسد أبي الراقد في مقبرة قريبة من البيت كان يرسل لي، ليلًا ونهارًا، أسئلة ووصايا. كان يرسل آلامًا ووحدة. جسد أبي الراقد في مقبرة قريبة، كما اكتشفت بعد ذلك، كان راقدًا في جسدي. وفي جسدي كان يتنفس. عيناه الغائرتان لا تزالان مفتوحتين. ومن خلال عينيّ، يتطلع للملكوت. أبي الآن ينظر عبري. أبي الآن يراقب الحياة من مكانه البعيد في الموت. وأنا لست إلا وسيطًا بين تصورين لا أعرف عنهما شيئًا. الموت والحياة.

في الطريق، كنت أفكر كيف أروي جذوري الجافة في مدينة لم أعرفها.

أي شيء يمكن أن أفعله بعد أن اطلعت على تاريخي. أي ثمن يجب أن أدفعه ليرتاح أبي في قبره. في قبره أو في جسدي. أبي وأجدادي. أبي وأجدادي وأنا، لقد غدوت مع كشف المخطوطات النقطة التي يجب أن تغلق عندها الدائرة. غدوت أو يهيأ لي. ما أعرفه يقينًا، إن كان ثمة يقين في شيء، أنني بدأت في طريق لا أعرف نهايتها، مع ذلك تمثّل لي جوهر الحياة.

في الطريق إلى مدريد، محطة الترانزيت التي سأبات فيها عدة ليالٍ قبل مواصلة الرحلة برًا إلى كوينكا، لم تغب عن ذاكرتي عائشة ومريم ومانويل، خوان ومانويلا، عبد الله دي مولينا. يهيأ لي أن نساء عائلتي، بجمالهن الأندلسي، كنّ خليطًا من جمال متنوع. جمال أخاذ. عائشة النحيفة الطويلة كانت مختلفة عن أمها البضة. يجمع بينهما الشعر الأسود والعينان البندقيتان. يجمع بينهما البياض بمسحة قمحية. لم يختلف كارلوس كثيرًا عن عبد الله. ربما لم يعرف خوان من اللغة العربية إلا حروفها، إلا أن تكوينه كان أندلسيًا. اللغة جزء من الهوية. كتابة خوان بلغة "الخاميادو" ليست دليلًا فحسب على هذه الهوية المنصهرة، بل إصرار أيضًا على الاحتفاظ بها منصهرة. هوية أجدادي، وبخاصة المولودون بعد التنصير، لم تنزع عنهم أندلسيتهم. كل ما حدث أن اسم الهوية تغير. لم يكونوا عربًا بنقاء. لم يكونون إسبانًا بنقاء. كانوا أندلسيين. الأندلسية هوية ثالثة. هوية جمعت بين الانتماء للأرض والانتماء للأصول البعيدة. جمعت بين هوية المناخ والتقاليد وهوية الدين. هل الدين أيضًا جزء من الهوية؟ الدين، لا في معناه الطقوسي، لكن في عمقه الثقافي. أفكر في أن الإسبان لم يطردوا العرب يوم طردوهم، لكن طردوا إسبانيين مثلهم. طردوا أنفسهم. الأندلسية، مثل كل هوية، تتكون من لغة

وثقافة وجذور. الأندلسية مثل جوال ضم في قاعه دينًا مسلمًا ولغة إسبانية ومزيجًا من الثقافتين. ربما كان الأوائل عربًا أو أمازيغيين بأعراق نقية. لكن الأعراق النقية، إن كان ثمة أعراق نقية، لم تبق كذلك مع مرور السنوات والعقود والقرون. المخطوطات تشير إلى التزاوج والانصهار. إلى اعتناق بعض مسيحيي إسبانيا للإسلام، سواء اقتناعًا أو تجنبًا للضرائب. أفكر في أن حتى الإسلام الأندلسي لم يكن هو نفسه الإسلام العربي تحت الدولة الأموية والعباسية والأيوبية، ولا هو إسلام دولة المماليك والدولة العثمانية. ما الذي يجعلنا نشعر بالانتماء للاندلس تحديدًا وليس للدولة الفاطمية مثلًا؟ الحياة اليومية بثقافتها تكوّن رؤى جديدة ومختلفة من مكان لآخر. ابن عربي، ابن رشد وابن حزم، كنماذج، كانوا أبناءً للمزيج الأندلسي. وكان أبي، رغم مرور سنوات طويلة على التهجير، أحد تجليات الأندلس. كان أبي ابنًا مخلصًا لابن عربي. وأنا، ابن من؟

في رحلتي، حملت معي رسالة أبي البيضاء. حملتها في جيبي لسبب لم أتبينه، ربما ظنًا أنني، لو أصبحت في مكان آخر، قد أستطيع قراءتها. حملت بعض كراسات للكتابة ربما تصلح، مثل أوراق أجدادي، كبوصلة لي. كبوصلة لأولادي. حملت، كغريب، شجرة العائلة ومخطوطة الخريطة. وحملت، بالطبع، مفاتيح البيت.

بقية المخطوطات، التي نسختها والتي لم أنسخها، بقت في سحّارة بيتنا. بقت كوعد مؤجل بالعودة. وعد مثل الوعد المؤجل بالعودة إلى كوبنكا.

50

في مدريد، شعرت بألفة تختلف عن ألفة مدينتي. مدريد تشبهني. مدريد أكثر اتساقًا مع اضطرابي وحيرتي. الإيقاع السريع، مقارنة بإيقاع مدينتي الميت، يتناسب مع التوتر الذي يتزايد بداخلي بمرور الساعات، كعجلة لا تتوقف، كخبب جواد يضل الطريق.

مع ذلك، مدريد مدينة الوعود الزائفة. مدينة السرابات. تشبه مدريد، في العمق، عاهرات شارع "مونتيرا". عاهرات يعدن بتقديم كل شيء، غير أنهن، في النهاية، لا يمنحن إلا خيبة الأمل. مدريد لا تمنح. لا تمنح إلا بقدر معرفتها بك. لا تمنح شيئًا لغريب. تناقض معمار المدينة مع الشحاذين في ركن ما يشبه تناقض جمال العاهرات مع بطونهن الخاوية. مدريد

لا تعانقك، لكنها ترسل إليك قبلة في الهواء. وفي الهواء، مع القبلة المعلقة، تظل أنت أيضًا معلقًا. معلقًا بها. تستطيع المدينة، على عكس مدن أخرى، أن تلبّس روحك. بداخلها، تشعر بالتيه. وخارجها تشعر بالفقد. مدريد، على عكس مدينتي، تمنحك أملًا. مدينتي، على عكس مدريد، تواجهك بالحقيقة مجردة. مجردة دون زيف. مجردة دون تجمّل. مدينتي بلا آمال. مدينة تشبه عجوزًا تصر ألا تخفي شيخوختها. تصارحك، منذ اللحظة الأولى، بآلام العظام. مدريد، في المقابل، عجوز متصابية. تفكك، كلما اضطرت، عضوًا تالفًا. تستخدم بدلًا منه أعضاء مكمّلة. تستخدم أعضاءً صناعية لن تكتشف، كغريب، أنها صناعية. ورغم الفروقات الكبيرة بين المدينتين، غير أن الحياة والموت يلتصق بكل منهما بوضوح: مدينتي مدينة الموت، ومدريد مدينة الحياة. بالنهار، تتأسس الحياة في مدريد، وبالليل تنطلق الحياة كمجنونة. بالنهار، يتأسس الموت في مدينتي، وبالليل تستشق الموت. الشوارع المطلة على "لا بويرتا دل سول" رئات متدفقة بالنشوة. الشوارع المطلة على وسط مدينتي طرق معبّدة بالدماء. مدينة المقابر، القريبة من بيتنا، تقع في وسط المدينة. قلب المدينة موت وجثث. أجساد بلا روح. أرواح بلا أجساد. مقابر مدريد في الأطراف، لكن قلب المدينة حياة تتسلل إلى الأجساد المستريحة.

51

Música Andalusí

https://www.youtube.com/watch?v=Lfou5KcgOcw

لجة عظيمة ساحلها | من بديع المرمر المنتخب
ماؤها كذوب در سال في | برد أعظمه من العجب
شف عني الماء حتى أنني | لست حينًا عنك بالمحتجب
فكأني والذي حويته | من معين الماء في المنسكب
قطعة من برد فبعضها ذائب | وبعضها لم يذب
وإذا طفا الحباب خلتني | فلكًا أطلع شتى الشهب

فكأن الجهر مني صدف| جامع جوهر ذاك الحبب
حادثني السعود أعصراً| للهمام الغالبي النسب
من بني الأقيال من اليمن| غرر الفضل ومعنى الحسب
من بني قيلة من خزرجهم| مظهرو الحق وأنصار النبي.

(ابن زمرك)

52

العشق الصوفي

https://www.youtube.com/watch?v=TglnjC9xMLI

53

أوراق عائشة دي مولينا

كورينكا/ 1571

(6)

جاءنا الخبر، كما توقعنا، فوق برك من الدماء. دماء، حتى لو غمّضنا عيوننا، نعرفها بالرائحة. دماء، كما نعرف، هي دماؤنا. دماء، منذ سنوات، تسيل كالبحور. ثورة قامت، من ضمن ما قامت، لتوقّف التزيف. لكن التزيف، يا لوجعي، يزداد ويتضاعف. غرناطة، غرناطتنا، تنزف. ونحن هنا، لتزيفها، ننزف. ونحن هنا، بسبب تزيفها، ننزف. فليبي الثاني، بيد ملوثة بالدماء، يصدر مرسومًا بدماء أكثر. لم يكتف، يا للغرابة، بتنصير

أهالينا. لم يكتف، يا للغرابة، بقهرهم. لم يكتف، بقسوته، بمحاكم التفتيش. فرمان الملك يأمر، من جديد، بتحريم أي مظهر لثقافتنا. يحرم، من ضمن ما يحرم، رقصة الثامبرا. يحرم، من ضمن ما يحرم، احتفالات السبوع. يحرم، من ضمن ما يحرم، دفن موتانا على طريقتنا. يحرم، بشكل أعم، أن يتنفس المسيحيون الجدد. وينتظر، الملك ينتظر، أن يخضع الجميع. لكن الجميع، مهما احتملوا، سيتمردون. لا يمكن، وضرب من المستحيل، أن تمحى عادات الناس المتجذرة في أعماقهم. هل يمكن تغيير الدين بالقهر؟ هل يمكن استبدال العادات المتوارثة؟ بفرمان الملك، كما نرى، نودّع خانة التنصير إلى خانة الإذلال. إلى خانة الطرد المقنّع. إلى خانة الكراهية. ومنذ عام، أكثر من عام، تستمر الثورة. منذ عام، ولأعوام قادمة، يستمر التمرد. يحاصرون قرية البُشارات، بؤرة التمرد، ويقتلون. ينتظرون، بغرور ينتظرون، إبادة المتمردين. يحرقون، ليس فقط البيوت والأراضي، بل الأرواح والأجساد. والأجساد المحروقة، كرد فعل، تحرق الكنائس والكهان. الكهان، بظن أنهم يملكون الحقيقة، يقتلون. الكهان، بظن تطهير أرواح المسلمين، يحرضون على الحرق. ما السبب، إن كان ثمة سبب، للقتل باسم الله؟ باسم الله أم باسم الملك أم باسم الأراضي والبيوت؟ أم باسم الكراهية؟ لماذا تريد أن أشبهك لتقبلني؟ لماذا تشغل نفسك بهدايتي؟ باقتيادي للجنة؟ بتطهير روحي؟ التسامح ليس أن نكون شبيهين، بل نقبل بعضنا على اختلافنا.

54

من أوراق كارلوس مروان بن مريم بنت عبد الله دي مولينا

(كارلوس دي مولينا)

(1)

أبناء عمي في حصن التراب

تحية محبة

يظن التاج الكاثوليكي أنه انتصر على الموريسكيين. أنه، بحرقهم وحرق بيوتهم وغلالهم وكهوفهم، قد انتصروا. لا يعلم التاج الكاثوليكي، أو ربما يعلم، أن بعض الانتصارات هزائم. وأكبر الهزائم انتصار على مقهور.

ولتكتمل المآسي، لأنها لابد أن تكتمل، ستسمع الذرائع. ذريعة: الموريسكيون يتعاونون مع الفرنسيين لهدم الدولة الإسبانية. ذريعة: الدولة العثمانية تسعى لغزو إسبانيا بظهير داخلي هو الموريسكيون. ذريعة: الموريسكيون ليسوا مسيحيين جددًا، إنهم يعتنقون دينهم القديم ويمارسونه خفية. ذريعة: يجب أن نطهر أرواحهم الضالة. ذريعة: لن تكتمل وحدة التراب الإسباني ما دام ثمة مسلمون يقفون كالشوكة في الظهر.

نعلم، كما تعلمون يا أبناء عمومتي، أنه ليس صراعًا دينيًا. نعلم، كما تعلمون يا أبناء عمومتي، أن سلطة الملك ما تحرك السلطة الدينية. أن الدين مُستخدم لتعبئة البؤساء والفقراء ضد البؤساء والفقراء. أن الملك يسعى لانتصار كاذب. أن تحت التاج الكاثوليكي تاج المطامع في أراضينا وأموالنا وثمارنا.

تماسكوا واصطبروا. كونوا عاشمين في وجه الله. ستنزاح الغمة لأن الغمة يجب أن تنزاح.

أخوكم كارلوس

كوينكا/ 1574

55

نداء أبو مراد: وادي الطلب

https://www.youtube.com/watch?v=cmdyOYJLM4Q

56

من أوراق دييجو فرناندیث بن فاطمة بنت يونس دي مولينا

(دييجو بن يونس دي مولينا)

(1)

عائلتي الغالية بـ كوينكا

انقطعت أخبارنا في السنوات الفائتة، و كان انقطاعها، كما لابد أنكم تعلمون، لظروف قاهرة. ولنفس الظروف القاهرة كنا نتلقى مراسلاتكم في صمت. لم نشأ أن نرسل إليكم رسائلنا المحمّلة بالأحزان، إذ كانت الأحزان أكبر من أن يخطها حبرنا.

عائلتي الغالية

مع نشوب ثورة البشارات، خرجنا مكلومين من حصن التراب لنؤازر أهالينا في غرناطة. كانوا، كما كنا، نعاني الازدراء والتحقير. كل شيء قد حُرِم علينا، وحُرِم عليهم. وغدا علينا أن ناكل ونلبس ونتكلم ونفكر طبقًا لمرسوم ملكي. ومع ذلك، أطعنا. ومع ذلك، ظللنا أهلًا للشبهات. الثورة كانت قادمة لا محالة، فمن يحتمل الاحتقار؟ ومن يحتمل السير برأس مطرقة؟ لن أحدثكم يا إخوتي عن قسوة تبديل دين بدين عنوة، كما حدث مع آبائنا، إذ القسوة الأشد أن يُنظر إليك كجاسوس لأن أصولك عربية. أن يشككوا في حبك وولائك لأرضك التي ولدت فيها. لقد صرنا، نحن هنا وأنتم هناك، مثل غزلان شاردة في غابة. غزلان إن نجت من الأسود فلن تنجو من الفهود.

ربما وصلتكم أخبار إحراق أهالينا أثناء الثورة. ربما وصلتكم أخبار الوحشية من التاج الكاثوليكي. لكن ما يدمي له القلب سأسرده عليكم.

بقتل ما استطاعوا من الرجال، خطف الجنود الكاثوليكيون أطفالنا. كل الأطفال الذين وقعوا في أسرهم خطفوهم، ثم نقلوهم إلى مدن تحت سيطرتهم مثل طليطلة، وربما رحّلوا بعضًا منهم إلى كوينكا. كانت الخطة، كما علمنا وذاع الخبر، أن يربوهم في كنف ثقافة وعائلات كاثوليكية، ليكون أبناؤنا كاثوليكيين على طريقتهم. إنهم لم يثقوا أبدًا في كاثوليكيتنا، رغم أننا تعمّدنا في كنائسهم، وتبرّعنا لقساوسهم، ولم ننقطع يومًا عن قداسات الأحد ولا عن احتفالات أسبوع الآلام. لم ينسوا أننا أبدًا، كما تعلمون، أصولنا المسلمة. لكنهم تناسوا، كما تعلمون، يد أجدادنا التي امتدت لتزرع أراض وتشيد قصورًا.

أطفالنا الآن، يا أولاد عمي، ينتشرون في مدن أخرى قد لا نعرفها. يحملون دمنا في عروقهم، وملامحنا في وجوههم. يحملون تاريخنا. تاريخنا المنصهر. تاريخنا الأندلسي. سلوانا الوحيدة، لأننا نبحث عن سلوى، أن أطفالنا سيعيشون في أمان. ثمة سلوى أخرى أراها بعيدة: بانتشار أطفالنا في المدن الأخرى سنبقى هنا للأبد. لا تنسوا، يا أولاد عمي، ما يلاحقنا من تهديدات بالطرد. لو حدث، وسيحدث لا محالة، ستبقى لنا بذرة أبدية في أرضنا. بذرة، حتى ولو دون إدراك، سترد غيبتنا. بذرة ستنمو وتشير إلى كل ما شيدناه هنا بمحبة. وإن كان قدرنا أن نفارق أراضينا، فربما يكون من الأفضل لأطفالنا، رغم قسوة الفعل، أن يكونوا ذاكرتنا هنا. صوتنا الخافت الذي سيعلو. ثمة سلوى أخرى، تخطر الآن ببالي، أن منهم من يكتب بالأعجمية، مثلما أكتب لكم الآن، ويومًا سيراسلوننا. لديّ أمل أن يراسلونا.

بانتهاء المعركة الدائرة بهزيمة المقهورين، إذ هرب منا من هرب واختبأ من اختبأ، عدنا مرة أخرى إلى حصن التراب، من حيث أكتب لكم الآن. عدنا إلى أراضينا لنزرعها. فحصن التراب، كما تعلمون، ورغم أنها قرية صغيرة، إلا أنها أرحب من العالم الضيق. الحق أننا نجد مضايقات من رجال السلطة. غير أن الناس لا تفرق بين موريسكي أو مسيحي جديد ومسيحي قديم. أهل القرية، يا أحبائي، أكثر تسامحًا من أبناء المدينة. الفطرة أكثر نقاءً من طموحات الوحدة المزيفة.

أستودعكم الله، كونوا في رعايته.

ديجو

حصن التراب/ 1579

57

"ما إن ينتهي من طعامه حتى يقول: الحمد لله. بعض الجيران كانوا يدعونه على الطعام ويقدمون له بيضًا بدهن الخنزير دون أن يخبروه. وما إن يعلم حتى يتقيأ كأنه يود أن يطرد أمعاءه من جسده".

"كلما رأوا جارًا يحمل زجاجة خمر، صاحوا: أعوذ بالله، ستقطع أقدام من صنعها لأن هذا يغضب الله".

من أوراق محاكم التفتيش التي تعرض لها: خوان جراندي، موريسكي من "أركوس دي خالون"، لأنه رفض أكل الخنزير وشرب الخمر في عام 1569.

58

الطريق من مدريد إلى كوينكا استغرق ساعتين. لم أكن أفكر، خلالهما، إلا في أمي. أمي في كوينكا أو في حصن التراب، هكذا قال أبي، إن لم تخني ذاكرتي الخائنة. ثم وجدتني أتشكك في احتمالية أن تكون في كوينكا. ما السبب الذي يجعل أمي تعيش في كوينكا؟ لأعلم أن معطياتي خاطئة وأن انتظارها هناك ليس إلا أمنية. أمي، أحدس ذلك، في حصن التراب. أمي، رغم ما يربطها بكوينكا، لن تبقى وحيدة في المدينة الصغيرة تبكي على الأطلال. تبكي أو تحرس ما ينبغي أن أعثر عليه.

في الطريق، لم تفارقني ذكرى أبي في أيامه الأخيرة. كل نظراته كانت تحمل دلالات لم التقطها كاملة إلى الآن. كل عباراته كانت مرشدة، لكنها، مثل عبارات المتصوفة، غامضة وعصية على التأويل. لم أفهم، مثلًا، كيف

لم يبحث أبي بنفسه عن مخطوطات كوينكا. لم أصدق كثيرًا أنه اكتفى بمخطوطات السّحارة ليطّلع على تاريخ أجدادنا. ألم يدفعه الفضول لمشاهدة الأرض التي جاؤوا منها؟ هل تزوج أبي من أمي لإعجابه بالمرأة الأوروبية أم لوصل ما انقطع؟ وهل أحبت أمي ماضي أبي أم حاضره؟ وأنا، كيف لم أبق في حضانة أمي وبقيت مع أبي؟

في الطريق إلى كوينكا، استحضرت، كعطشان في صحراء، أحلامي القديمة بالمدينة. كأن الأحلام طريق للوصول. كأن الروح تعرف أكثر من العقل. كأن اللاوعي يختزن ذكريات الأجداد. كأن دائرية الأرض ليست نظرية فيزيائية فحسب، بل نظرية روحانية كذلك.

59

أنا وكوينكا طرفان متناقضان. لكنها تناسب الروح التي قد تستقر هنا. كما استقرت روح أبي وأجدادي. عرفت ذلك منذ اللحظة الأولى التي اقتربت فيها من المدينة القديمة. بالخريطة في يدي والمفاتيح في حقيبتي، وصلت لبيت عبد الله دي مولينا، رقم 97. سرت في شوارع ضيقة ومرتفعة، محاط ببيوت قديمة من طابقين، أو ثلاثة على الأكثر. شرفات البيوت قريبة حتى خُيل لي أن بوسعي أن ألمسها. حجارة البيوت كانت بارزة كدليل آخر على قدمها. كانت بارزة كرقاب الخيل. الخيل الذي رأى فرسانه في المقاصل.

بالمفاتيح في يدي، توقفت أمام باب من القرون الوسطى. باب خشبي

من ضلفة واحدة. باب مقوّس. باب قديم ومشقق، مثل تاريخ أجدادي. مثل مخطوطاتهم وصحائفهم. مثل جرحهم المفتوح. المفتاح المعدني الكبير كان يليق، ليس بحجم الباب فحسب، بل بتاريخه. الباب، هكذا أدركت، كان بوابة جديدة على عالم آخر. وأمام الباب، تذكرت حلمًا قديمًا، جاءني فيه صديق ميت، ساقني من البيت إلى طريق لا أعرفها. ظللنا نركض دون أن أعرف المبتغى. وتوقفنا أمام باب يشبه بوابات المدن القديمة. وهناك، تسمّرت في مكاني. صديقي، وكنا في الثالثة عشرة تقريبًا، أخرج مفتاحًا وفتح الباب بثبات. وأنا خلفه أشعر بوجل. لمّا عبرنا الباب، وبينما كنت أنتظر أرضًا مأهولة، وجدتني في صحراء. الصحراء، حسب تأويلي حينها، كانت الرحيل للموت.

أمام الباب، بأبي فوق كتفي يدفعني لأعبر، وجدت الباب ينفتح ببطء. سيدة بشعر رمادي وعينين بندقيتين تطلعت إليّ. كانت السيدة، بحسب ما انتبهت في اللحظة، تشبهني. كانت السيدة، بحسب ما أدركت في اللحظة، أمي.

60

"سأبقى معك ليوم واحد هنا، في الصباح سأرحل إلي حصن التراب"، قالت أمي بعينين دامعتين. قالت وانتظرت أن أقول لها سألحق بكِ. لمّا لم أقل، قالتها هي بنبرة آمرة، لتخفف من حدتها أضافت "وقتما تحب".

اصطحبتني أمي في جولة بالبيت. هبطت معي، عبر سلم حجري، إلى السراديب التي تمر تحت سبعة بيوت بحسب ما ظننت. هناك، تحت الأرض، كانت الإضاءة جيدة، وكانت التهوية مريحة. وضعت أمي، هكذا حكت لي، ملصقات صغيرة فوق كل صندوق. ملصقات كدليل للمحتوى. قالت إنها فندت كل هذه المخطوطات لسنوات طويلة ليسهل قراءتها، غير أنها انتظرت مجيئي لتستشيرني في الحفاظ عليها أو التنازل عنها.

قسّمت أمي المخطوطات بحسب التواريخ، فوضعت مخطوطات القرن الثالث عشر والرابع عشر في صناديق متقاربة، والخامس عشر والسادس عشر في ركن آخر. ووضعت عقود الملكية والزواج والطلاق وشهادات الميلاد والوفاة الخاصة بكل قرن متقاربة، ثم جمعت اليوميات والمذكرات والحوليات والمراسلات في صناديق أخرى. قالت أمي إن التصنيف استغرق أكثر من عشرين عامًا، اطلعت فيها على كل الوثائق، وتعلّمت كيف تهيئ الجو الملائم للحفاظ عليها. لاحظتُ، أثناء البحث بفضول، أن المخطوطات كُتبت بالعربية والإسبانية القديمة والأعجمية. ورغم وضوح الخط ودقة الحروف، إلا أن قراءة مخطوط، ولا أقول نسخه أو ترجمته، كان مهمة شاقة. لمّا أخبرت أمي بوصية أبي، نظرت إليّ بشفقة.

أمام يأسي، لم تلح أمي على شيء. كانت ترشدني فحسب. وفي دهشتي، المصحوبة بيأس كذلك، لم يكن من السهل أن أتخذ قرارًا. مع ذلك، أشرت لها مرة أخرى، إلى رغبة أبي في نسخ ما يمكن نسخه، والحفاظ على الأصول. لم ترد أمي، ولمّا أعطتني ظهرها انتبهت لحدبتها. شاهدت كيف مر الزمن وقوّس الظهر. فكرت في أنني سأرث حدبة أمي كما ورث أجدادي الرقبة الملتوية.

61

حكت لي أمي، وكانت مفاجأة، أنني ولدت في حصن التراب.

قالت إن أبي حملني فوق كتفيه وجال بي في شوارع القرية، حتى أن أهلها لا يزالون يتذكرونني. وفي حصن التراب رأت عيناي، أول ما رأت، حقول الزيتون الممتدة منذ الأبد في تلك الأرض.

حكت أمي أن أولى خطواتي كانت هناك. أن لعبي وشقاواتي الأولى كانت في الشوارع الضيقة، ببيوتها الحجرية. بابتسامة مريرة قالت "من حيث بدأنا سننتهي". لم تكن أمي عجوزًا، غير أنها كانت تتكيء على عكاز. لم تكن عجوزًا غير أنها كانت تحتاج إلى أن تتكيء على شيء، فاتكأت على عكاز. كانت عيناها البندقيتان لا تزالان تحتفظان بلمعة. لمعة

تتنافر مع حديثها. لمعة لم أعرف أبدًا هل هي لمعة فضول أم فرح بلقائي. ذكرياتي مع أمي، إذن، لم تكن في المدينة التي جئت منها. جلوسي في انتظارها لم يكن إلا ذكرى مزيفة سرّبها لي أبي. قالت: "في عامك الثالث انتقلنا إلى كوينكا، وفي مقابر "سان إيسيدرو" وضعنا باقات الورود على مقابر أجدادنا". لم يكن حلمًا، إذن، تجوالي مع أبي في شوارع كوينكا المرتفعة، ولا جلوسي فوق المرتفعات التي تطل على نهرين صغيرين. لم يكن حلمًا مشاهدتي للبيوت المنحوتة في الصخر. وربما لن يكون حلمًا أن يودّعني أبي هناك، في التل المطل على المدينة القديمة.

62

"المسيحيون لا يعرفون الطبخ إلا بدهن الخنزير، وفي أرضها (غرناطة) يطبخون بالزيت".

"ولأنها تطمح للحرية لتعيش بحسب هذه العقيدة كانت تقول إن الأتراك قادمون وتدعو الله أن يأتوا ليخلصوا كل الموريسكيين، كما كانت تشكو للتركي بأننا نسيء معاملتهم في هذه الأرض. كانت السيدة تصلي لياتوا فيرحلوا معهم لتحيا بحريتها وتستمر في ممارسة عقيدتها علنًا. كما كانت تقول إنهم يسمحون للجميع في كل الممالك أن يحيوا بالعقيدة التي تروق لهم، فلماذا في هذه المملكة لا نسمح لها بالحياة بعقيدتها؟!"

من أوراق محكمة تفتيش الموريسكية ماريا دي مندوثا الغرناطية عام 1572

63

- لكن يا جلالة الملك، إن تكرمت وسمحت لي أن أقول كلمة...
- تكلم!
- ما الداعي لتخييرهم بين الرحيل أو تبديل دينهم إن كنا قد عاهدنا أبو عبد الله ببقائهم وحرية عقيدتهم عند تسليمه مفاتيح غرناطة؟ ما الخطر الذي يمثله المسلمون على التاج الملكي أو وحدة بلادنا؟
- الخطر ليس في أن لهم دينًا آخر، بل لأن ولاءهم لدينهم قد يدفعهم للولاء للعرب، إخوانهم في الدين، على الضفة الأخرى.
- لكنهم، يا جلالة الملك، أوفياء لهذه الأرض التي ولدوا فيها ولا

يعرفون غيرها. إنهم مثلنا تمامًا، شربوا من ماء نهرنا وأكلوا من ثمار أراضينا. لقد تزوجوا منا وأنجبوا حتى صار مستحيلًا أن نفصل بين الدم. في قوتهم لم يجبرونا على اعتناق دينهم، وخلال سنوات هزيمتهم عاشوا بيننا كمدجنين في الممالك الكاثوليكية، فلم نر منهم إلا خيرًا. ثم يا جلالة الملك، وسموك العدل والعدل صفتك، هل ترى من الإنصاف أن نعاقب قومًا بذنب لم يقترفوه بعد لمجرد أننا نتوقع أنهم سيقترفونه؟

- في السياسة، أنت لا تنظر إلى الجثث التي تطأها بقدميك، بل للخط الذي تراهن على الوصول إليه. وفي طريق الوصول، لا ينبغي أن تلتفت للجثث المسجاة خلفك. بينما تفكر أنت في التعايش، ولعلك تفكر كذلك فيما تعلمناه من العرب وما تركوه من خير في أرضنا، أفكر أنا في أنهم غزاة لأرضنا، وأنهم في قوتهم انتصروا علينا. الهزائم، يا عزيزي الوزير، تولّد الشعور بالانكسار. والشعور بالانكسار لا دواء له إلا انتصارات كبيرة. هكذا لا نسترد أرضنا فحسب، بل نسترد أنفسنا وثقتنا في قوتنا. ويسترد الشعب ثقته في الملك.

- بالحسابات السياسية أيضًا سنخسر يا جلالة الملك، فلو اختار المسلمون الرحيل ستتوقف الزراعة والتجارة والصناعات اليدوية.

- هناك مسلمون بالطبع صاروا كاثوليكيين وأخلصوا للكنيسة.

بالإضافة لذلك، لابد أن بينهم من سيختار الوطن الذي لم يعرفوا غيره.

- إن كنت تعرف ذلك يا جلالة الملك، فما الداعي لل...

- الداعي أن يخضع الجميع لسلطاني، وأن يدرك المسلمون أنهم الآن تحت إمرتي. ليس في ذلك أنانية مفرطة، ولا بحث عن مجد زائف. فالحقيقة أن مجد بلادنا مرتبط بمجدي الشخصي، وانتصاراتي انتصار لها. ووحدة هذه الأرض غاية أبتغيها ولا راد لها. كل خيراتها ينبغي أن تعود إلى أهلنا، فيما يعيش الغزاة حياة الهزيمة، حياة التنازل والخضوع.

(من الأرشيف الملكي، عام 1502)

64

Dhafer Youssef, Al Hallaj

https://www.youtube.com/watch?v=cGLDK15YwHk

65

الشبه بين أمي وأبي كان واضحًا. الاختلافات بينهما غدت أيضًا واضحة. في لحظة ما، لمّا كنا فوق تلال كوينكا، تنظر إلى الملكوت على اتساعه، لمحت روح أبي متلبسة في أمي. نظرته الجانبية بوجنته المرتفعة قليلًا حينما يتأمل، كانت مرسومة على محياها كأنها هو. الفارق الواضح بينهما أن أمي، في حديثها عن أجدادنا الموريسكيين، كانت تنظر للقضية كتاريخ. ترى، من ضمن ما ترى، أنها قضية سياسية. أبي كان ينظر له كحدث ممتد لم ينقطع، سببه الاضطهاد الديني. أمي، بحسب ما حكته لي، كانت مشغولة بكشف حقيقة الأقلية التي عانت بسبب الطموح السياسي، حتى لو كان الاضطهاد الديني قمة جبل الثلج. أبي كان يحلم بحق العودة بعد التهجير. أمي لم تهجّر، عاشت مع النسبة القليلة التي تبقت من الطرد، وشاهدت ما لم

يشاهده أبي. كان أجداد أبي من ضمن ما يقرب من نصف مليون مهجّر، وأجداد أمي من 10% عاشوا في الرعب والشعور بالمطاردة. لذلك، فالوثائق والمخطوطات كانت تعني لأمي حقائق لم يطلّع عليها أحد. ومهمتها أن يطلع عليها الناس. نفس الوثائق والمخطوطات كانت تعني لأبي أدلة وبراهين على أننا ننتمي لهذه الأرض.

حكت لي أمي، بينما كنا جالسين على دكة رخامية، نشاهد من خلالها بيوت أجدادنا المهجورة، أن الاضطهاد الديني لم يكن في عمقه دينيًا، بل كان سياسيًا. "وحدة إسبانيا الكاثوليكية لم يكن الهدف منها أن تكون رمزًا للكاثوليكية، بل السعي لتكوين إمبراطورية سياسية قوية، والدخول في عصر النهضة".

بعض الوثائق التي اطلعت عليها أشارت إلى المسلمين كعائق سياسي أمام تحقيق هذه الإمبراطورية، بحسب ما ظن الملوك الكاثوليكيون. أمي لم تتفق ولم تتسامح مع الحرق والتهجير والاضطهاد، لكنها تتبنى وجهة نظر تختلف عن وجهة نظر أبي. "الدين لم يكن إلا وسيلة للحشد، مجرد شعار يلتف حوله الجهلاء. الهدف هو السلطة، السيطرة، السياسة. هل تعتقد أن حب السلطة اكتفى بطرد الموريسكيين؟ كيف تفسر إذن امتداد الحرب مع إيطاليا وفرنسا المسيحيتين؟ إنه الجنون".

الجنون امتد لأمريكا اللاتينية ليرتكب مجازر سُميت بالأسطورة السوداء. مجازر لم تُرتكب من أجل الدين، بل السلطة. وفي حالتنا، حالة الموريسكيين، يبدو للوهلة الأولى أن الأبطال كانوا القساوسة. ليس صحيحًا، تقول أمي،

القساوسة كانوا أداة في يد السلطة. سلطة السياسة استغلت سلطة الدين لتكتسب مشروعية.

عدنا للبيت ونزلنا إلى السرداب، اطلعتني أمي على مخطوطات جديدة تشير للأثمان التي دفعها اليهود والمسلمون جرّاء جنون السلطة. غير أن مخطوطات أخرى كانت تنقد الحكام المسلمين، وتزيل عنهم قداسة اكتسبوها لمجرد أنهم كانوا مسلمين في مواجهة كاثوليكيين، أو ربما لأن حادثة الطرد بقسوتها غطت على الأحداث الأخرى.

لم يكن الحكام المسلمون، بحسب ما قرأت، ملائكة. لم يتبعوا تعاليم التعايش طيلة الوقت، ولم يكن غرضهم تطبيق قيم الدين ونشر عقيدته. كان هدفهم، في النهاية، السلطة والاستحواذ، تحقيق أكبر قدر من الغنائم. الحُكم، يا ابني. الحُكم والسلطة، قالت أمي. السقوط لم يحدث لأن الملوك الكاثوليكيين كانوا أقوياء، بل لأن الضعف كان قد تسلل لكل أركان الدولة الإسلامية. أنا لا يعنيني من القوي ومن الضعيف، تاريخ أجدادي فقط جعلني أبحث في أسباب التهجير والطرد.

إحدى مخطوطات جدي محمد، وترجع إلى سنوات ما بعد سقوط غرناطة، كانت تشير إلى أبو عبد الله الصغير بكل تبجيل. الوثيقة تنفي عنه صفات الضعف، وتصفه بـ"الفيلسوف والرشيد". في آخر المخطوطة يشير جدي إلى أن أبو عبد الله عادى سفك الدماء، ولولا ذلك، لتحولت الأنهار إلى أنهار حمراء.

حكى جدي أن اتفاق أبو عبد الله، الذي تتجاهله كتب التاريخ، كان ينص على أن يعيش المسلمون في سلام تحت التاج الكاثوليكي. أن يمارسوا شعائر دينهم، وأن يحتفظوا بممتلكاتهم. غير أن الملكين نقضا العهد بعد عشر سنوات. فجرى ما جرى، ولم يدفع الثمن إلا الشعب المسلم، مثل كل الشعوب التي تدفع ثمن أخطاء حكامها.

66

مساءً، تجولنا في شوارع كوينكا. اقتربنا من كاتدرائية سانتا ماريا وسان خوليان. سرنا في الساحة الصغيرة بين بيوت القرون الوسطى. سرنا، ربما، فوق آثار أقدام محمد دي مولينا وعبد الله ومريم وخوان وعائشة. ربما ابتلت أقدامنا بالبركة التي جلست فيها الطفلة كارمن، جدتي. سرنا، ربما، فوق منصات محاكم التفتيش ودماء أجدادنا. سرنا، بتمهل، لنسمع أصوات ماضينا. وبينما كنا نسير، كانت أمي تحكي لي قصة كل بيت. كان أهل المدينة يعرفونها. كانوا يحيونها بابتسامة وقبلتين. كوينكا كانت تعانقنا. كانت مدينتنا الدافئة. كان أهلها، ولا زالوا، يدًا حانية. في مدينتي من حيث جئت، كنت دائمًا متعرقًا. في مدريد كنت ظمآن. في كوينكا شعرت بالرضا.

نحلت أمي عن العكاز واتكأت على ذراعي. قالت: "كل المخطوطات ينبغي أن تظهر للعلن. فكرة أبيك عن الحفاظ على السر تجاوزها الزمن". كنت أصغي إليها في صمت، وكانت تقول: "أبوك اتبع التقليد دون أن يفكر فيه. أجدادنا احتفظوا بالمخطوطات سرًا وخوفًا من العقاب. الآن، ما من عقاب. المخطوطات حق للجميع. والتاريخ حق للجميع".

67

"أولادها يأكلون الخنزير من وراء ظهرها في بيوت الجيران".

من محاكمة إيسابيل جونثالث، موريسكية من "سان كليمنتي". التهمة: تحرّم على أبنائها أكل الخنزير في بيتها. عام 1605.

68

في الصباح، فرشت لي أمي في ممر السرداب تصويرات أجدادي وجداتي. كانت رسومات لا تحمل توقيع الرسام، بل اسم المرسوم. رسومات تشبه أمي وأبي. كأن أمي وأبي لم يحتفظا بالمخطوطات فحسب، بل حملا الملامح كإرث لا يزول. يمكن، من خلال تتبع الرسومات، معرفة خبايا سجّلها فيما بعد مؤرخو تلك الفترات. في رسمة محمد دي مولينا وابنه عبد الله، يبدو جليًا الشعور بالزهو والقوة. نظرات كل منهما كانت ملأى باللمعان، حتى ملابسهما كانت أكثر ثراءً. مريم كانت شديدة الجمال، بعينيها البندقيتين وشعرها الأسود وبياضها المائل قليلًا للبرونزي كانت تبدو كملكة متوجة. الأجداد الذين ولدوا عقب سقوط غرناطة، رغم أن "لامانتشا" التي تتبعها كوينكا كانت قد سقطت قبلها بسنوات

طوال، بدأ ينسحب على نظراتهم القلق، الاضطراب والخوف. نظرات كارلوس، مثلًا، كانت تتركز في نقطة بعيدة ومجهولة. سقوط غرناطة، كما يبدو من الرسومات، كان يمثّل القشة الأخيرة التي تعلق فيها كل الغرقى. استحالت رسومات أجدادي، الغرقى، لقتامة تتوسل الابتسامة.

اصطحبتني أمي من يدي واتكأت على ذراعي. سرنا من جديد في شوارع كوينكا، وصعدنا إلى تل المدينة، وهبطنا حيث مقابر سان إيسيدرو. هناك، اقتربت بي أمي من لافتة رخامية معلّقة فوق بوابة تحمل اسم "محمد دي مولينا وعائلته". فتحت أمي الباب ودخلنا. كانت المقابر مكسوة بشواهد قبور بأسماء أجدادي وجداتي. أشارت لي أمي إلى شاهد، فقرأت اسم أبي وتاريخ وفاته.

قالت أمي إنها رأت في المنام شجرة ضخمة بحجم مدينة كبيرة، كانت أوراقها تتساقط بكثافة حتى غطت الأرض. لمّا مالت على ورقة كبيرة بحجم يد مزارع، كان اسم أبي محفورًا بداخلها. فعلمتْ أنه سيموت بعد أربعين يومًا.

69

"زوج لسيدة موريسكية كانت خادمة لدى عائلة مسيحية قديمة ومخلصة لدين سادتها. الخلافات بينه وبين زوجته كانت مستمرة، إذ أنه ينهرها لأنها لا تعرف العربية ولا البسملة ويصفها بالحماقة. يقول لها إن هؤلاء الذين ربوك يضللونك، ويحاول إقناعها بأن الصليب ليس إلا عصا متقاطعة، وبأن العذراء لا يمكن أن تكون عذراء وتلد، وأن المسيح كان رجلًا صالحًا لكنه ليس إلهًا ولا ابن إله، وأنها مسكينة لأن سادتها يزينون لها أن في السماء قديسين رغم أنه ليس هناك إلا الله ومحمد"

من أوراق محاكمة لويس لوبيث، موريسكي من "سوكوباموس":
التهمة: توبيخ زوجته المتنصرة، عام 1580

70

"أبناؤه الثلاثة الكبار من زوجته الأولى. والابنان الصغيران من زوجته الثانية لويسا مارتينيث".

من أوراق محاكمة لويس بلانكو، موريسكي من كوينكا. التهمة: تعدد الزوجات، عام 1482.

71

من أوراق خوان دي موليا

كوينكا/ 1609

(2)

خرجنا من البيت بأمتعتنا على ظهورنا، يا ميجيل. كنا نودّع الجدران بالدموع، ونشعر بالروح قد بلغت الحلقوم بحثًا عن مخرج للبقاء في بيتنا. حينها كنت أنت في الثانية عشرة، ومانويل يصغرك بعامين، وخوانا تصغرك بخمس، وكانت كارمن لم تبلغ العامين بعد.

وقفنا في ساحة كوينكا ننتظر عربات الشرطة التي ستقلنا إلى قبلة لا نعرفها، يحيطنا أهالينا الذين تبقوا حتى النفس الأخير في مدينة لفظتهم.

كنتَ حزينًا يا ميجيل، حزنك منعك من البكاء، وكنت رصينًا حد أنك كنت تجيب على أسئلة إخوتك بلطف. علّمتني حينها، يا ابني، درسًا لم تعلّمه لي الحياة، درس ألا أمنح الآخرين حزنًا.

لمّا اقتربت عربات الشرطة صمتت ألسنتنا لتتحدث أعيننا، هاجمتنا بغتة قشعريرة برد لم نعرف منبعها، كأنها انتفاضة الاحتضار. رجل الشرطة اقترب منا وقرأ من ورقة اسم ماريا وماتويل وخوانا وكارمن، وقال بقسوة عهدتها في رجال السلطة: "ستبقوا أنتم هنا" وأشاح بيده لنا لكي نركب أنا وأنت بمفردنا. لابد أنك تذكر يا ميجيل تلك اللحظة، لحظة صراخ أمك التي رن صداها في تلال كوينكا بأسرها. صرخة لم تحرك شعور رجل الشرطة الذي قال ببرود إنها أوامر القس. ثم سلّمتك ماريا حقيبة قماشية صغيرة تحمل رسوماتك لإخوتك، رسمتها لتزجية وقتك وها أنت الآن تحتفظ بها حتى لا تنسى ملامحهم. الحقيبة كذلك احتوت نسخًا من مفاتيح بيتنا، رقم 97، بيت جدنا عبد الله. ويوم أموت، سأسلمك المفاتيح للأبد، لتعود. تذكر أن صحائف أجدادنا هناك.

في المسافة من الساحة للعربات، سرنا نتلفت خلفنا. كانت ماريا تقف على عتبة البيت بجانب ماتويل وخوانا وكارمن. دموعهم التي ساحت وصلت تحت أقدامنا. بللت كعوبنا. في المياه ركضت كارمن نحوي. ربما لم تعرف أنه لقاؤنا الأخير، لكنها حدست. الأطفال يا ميجيل يعرفون أكثر منا. يعرفون لأنهم يرون العالم بأرواحهم النقية. عينا كارمن قالتا كل شيء. لم تكن نظرات من يودّع بأمل الانتظار، بل الوداع الأخير. خوانا

نجحت بإعادة كارمن وركضت نحونا. وماتويل ركض من أجل أختيه. وبينما كنت أعانقهم العناق الأخير، سقطت ماريا مغشيًا عليها. سقطت في بركة من الدموع. وقبل أن أركض نحوها، سحبنا الشرطي وألقى بنا في العربة. سحب كارمن من بين ذراعيّ وألقى بها في البركة، فجلست حتى ابتلت لصدرها.

في العربة ظللنا أنا وأنت يا ميجيل ننظر وراءنا. نتطلع للتلال والبيوت المنحونة في الصخر، نودّع الشمس في الأفق. وكلما تقدمت العربة للأمام، انتُزعت قلوبنا من صدورنا. التوت رقابنا أكثر. تذكر يا ميجيل: منذ تلك اللحظة غدونا برقاب ملتوية. منذ تلك اللحظة نسير بعيون تنظر إلى الخلف.

72

لا تُشرق الرّوح إلا من دُجى ألم
هل تُزهر الأرضُ إلا إن بكى المطرُ؟

"جلال الدين الرومي"

73

"غسلت من ركبتيها إلى أسفل قدميها بالماء الساخن عقب عودتها من هوس عنب النبيذ. ثم طلبت لويسا، الموريسكية والداية، من جارتها (زوجة الشاهد) أن تقص لها شعرها لتغتسل بعدها بالماء الساخن".

من محاكمة لويسا لوبيث، موريسكية من سوكوياموس. أدانتها محاكم التفتيش بالاغتسال والوضوء، عام 1583.

74

من أوراق خوان دي موليتا

تطوان/1609

(3)

الطريق من كوينكا حتى مضيق جبل طارق استغرق ثمانية قرون. ثمانية قرون بدأت منذ دخول العرب الأول لشبه الجزيرة الأيبيرية استجابة لدعوة النبلاء معارضي رودريجو، وبمساعدة دون خوليان حاكم سبتة الذي، انتقامًا من رودريجو نفسه بعد أن انتهك ابنته، قرر أن يفتح بوابة شبه الجزيرة للمسلمين. ثمانية قرون منذ ذاك الزمن البعيد حتى خروجنا الآن يا ميجيل، مطرودين. لكن هل هُجّر الموريسكيون أجمعهم؟ تذكّر،

يا ميجيل، أن إخوتك هناك، أبناء عمومتك هناك. دماؤك تسير في عروق من بقوا بمرسوم ملكي للحفاظ على البلد من الخراب، ومن اختطفوا ليعيشوا الكاثوليكية كما يراها الملك، ومن اختبأوا وناوروا دفاعًا عن ماضيهم ولو بالتخفي. وفي عروقك يا ميجيل تجرى دماء أندلسية، دماء مختلطة.. انظر إلى ملامح وجهك.

فوق كل ذلك، يا ميجيل، فكّر كما أفكّر: إلى أي حد ننتسب نحن إلى العرب الأوائل أو الأمازيغ الأوائل؟ من يستطيع الآن أن يحدد أي دماء تجري في عروقنا؟ أتسمع اللغة التي أحدثك بها؟ إنها القشتالية. أترى العادات والتقاليد اليومية؟ إنها عادات الأرض التي ولدنا فيها. بالطبع التقاليد مختلطة، بعضها يأتي من أجداد قدامى وبعضها من آباء وأجداد حديثين. لكن ذريعة التهجير باطلة، تذكّر ذلك. تقدم الدولة العثمانية في شمال أفريقيا آثار الخوف، نعم، في الملك، لكن تهمة أننا خونة وأننا سنتحالف مع العثمانيين لا أساس لها، حتى حجة أننا مسلمون نتحالف مع مسلمين كانت بلا سند، فغرناطة، كتجسيد أخير للسقوط، لم تسقط إلا لأن ملوك المسلمين تحالفوا مع ملوك الكاثوليكية ضد ملوك المسلمين. لم نكن خونة يا ميجيل، كان ولاؤنا لأرضنا، لبيوتنا، لأشغالنا، لأبنائنا. كان ولاؤنا، فوق كل شيء، لأرواحنا التي ولدت هناك، ولذكرياتنا التي نبتت يومًا وراء يوم. لم يكن يشغلنا ديانة أحد، ولم نكن نرغب في شيء إلا التوقف عن السؤال عن الدين.

ثم أي عقل يا ميجيل يمكن أن يبلغ حماقة التحالف مع عدو ضد

العثماني عدو يأتي ليسلبنا أراضينا ويسفك دماءنا ويحصد ثمارنا ويصنع
الجداول نسير فيها، ثم بعد ذلك يستخدمنا كحطب في محرقة. أتعرف
يا ميجيل، حتى ثورة البُشارات نشبت من أجل العدل وحرية العقيدة،
نشبت ضد المطاردات ومحاكم التفتيش، بمعنى آخر، يا ميجيل، نشبت من
أجل التعايش لا الحرب، من أجل وقف نزيف الدم لا من أجل إهداره.
نشبت ولم تلجأ للعثمانيين الذين بلغوا الجزائر، فلم نلتفت إليهم. لم نلتفت
لأن أخبار بلاد الشام ومصر كانت تصلنا، فلم نرغب أن نستبدل ظلمًا
بظلم، ولا ملكًا بملك، ولا متحدثًا باسم بالله بمتحدث آخر باسم الله.
كما نرغب، كما لازلنا نرغب، أن نعيش في سلام. حتى الأتراك الذين
جاؤوا كغيون ليحسوا نبضنا، لم يجدوا منا إلا حبًا لأرضنا وإخلاصًا
لوطننا. من أجل ذلك فحسب لم يتقدم العثمانيون نحو الأندلس.

75

من أوراق خوان دي مولينا

تطوان/ 1612

(4)

اسمع يا ميجيل

بين تاريخ الدخول وتاريخ التهجير، قامت ممالك وسقطت ممالك، تعايش الجميع حينًا وتحارب الجميع حينًا، أقيمت المقاصل وأهدرت الدماء حينًا، وتصاهرنا واختلطت دماؤنا حينًا. وأثناء كل ذلك، يا ميجيل، لم نكن حكامًا، كنا عائلات تبحث عن الحياة وتصنعها، عملنا في

الحدادة والعطارة والعطور، عملنا في الزراعة والحصاد، لم نخدم لجيش ولم نكن جنودًا، لم نرفع سلاحًا في وجه أحد، ولم ننتهك حرمات أحد. توارثنا كعبارات مقدسة تعاليم محمد دي مولينا، جدنا الكبير، أن عيشوا وتعايشوا ولا تؤذوا أحدًا، أن الأرواح بيوت أصحابها فإن طرقتموها فاطرقوها برفق. لكننا يا ابني، في أول المطاف وآخره، المستضعفون في الأرض، حطب المجمرات، كلنا حطب للملوك، يحرقوننا من أجل ساعة تدفئة شتوية. لكننا لا ندرك ذلك إلا حين نغدو رمادًا.

في الطريق إلى المضيق، هل تذكر يا ميجيل؟ حيث كانت تنتظرنا المراكب، سمعنا من يقول إنهم سيلقون بنا في عرض البحر، يقول إنهم لا ينتقمون منا فقط، بل ينتقمون من البحر أيضًا. وما الفارق يا ابني بين أن يلقوا بنا في البحر أو يلقوا بنا في أرض لا نعرفها؟

حول المضيق كنا بالآلاف من كل مدينة، من كوينكا وطليطلة وبالنسية وغرناطة وقرطبة وقاديش وجيان. وهناك، كلنا كنا ننتظر مصيرنا المجهول. وهناك، بغتة، ظهر قطّاع طرق لا نعرف من أين جاؤوا، فسرقونا. أي مقاومة يمكن أن يقدمها رجال منكسرون؟ إن كنا قد هُجّرنا من أرضنا وبيوتنا، أندافع بحياتنا عن قطعة ذهب؟

وفي المراكب الصغيرة، بأعدادها الكبيرة، كنت على يقين أن نهايتنا هنا. كنت أعانقك يا ميجيل حتى تنجو أنت، فأنت لم تر الحياة بعد وإن كنت رأيتَ أسوأ ما فيها. لكن كُتبت لنا أعمار جديدة.

76

من أوراق خوان دي مولينا

تطوان/ 1612

(5)

اسمع يا ميجيل

على الضفة الأخرى من البحر ألقوا بنا، كأننا حيوانات نافقة. لم نكن ندري في أي طريق نسير. لم نكن ندري في أي بيت سنقضي ليلتنا. ولا أي عمل سنعمل. برفقتنا، كان الآلاف والآلاف. بأطفالهم وزوجاتهم. بعجائزهم ومرضاهم. بأمتعتهم فوق أكتافهم، وجروحهم النازفة. تأتي المراكب فترمي على نفس الشاطيء بالمئات وترحل. تطوان وفاس وطنجة

تنظر إلينا كمنبوذين. المراكب تلقي بذوينا في شطآن لم نعرف بها. إلى مدن ليست مدننا. وأنت يا ميجيل تسألني أين نحن. وأنا لا أعرف أين نحن حتي أجيب.

كنا نعرف شيئًا عن تطوان قبل مجيئنا. بعض إخوتنا من الأندلسيين ثم الموريسكيين كانوا قد سبقونا إليها بعد سقوط غرناطة. أو تحديدًا بعد صدور فرمان ملكي بالتنصير أو الرحيل. الذين رحلوا، بحسب ما وصل لعلمنا، كانت قبلتهم الضفة الأخرى. الذين رحلوا، بحسب ما وصل لعلمنا، كانوا في أغلبهم من علية القوم، أصحاب الملك والنبلاء وقادة الجيوش. لم يتخيل هؤلاء، وكيف لهم أن يتخيلوا، أن يعيشوا خاضعين تحت إمرة حاكم كاثوليكي. هؤلاء الذين يصدرون الأوامر ليس بوسعهم إدراك أن يكونوا مأمورين. علية القوم يتصارعون على السلطان، فإن نالوه أذلونا، وإن أخفقوا رحلوا، لندفع نحن، الفقراء البؤساء، ثمن خطاياهم. فرحلوا واستقروا في الضفة الأخرى. الضفة التي صرنا نسكنها الآن.

كنا نعلم شيئًا عن أخبار تطوان. كنا نعرف قصة إعادة تشييدها بأيادي جنود المنظري، أحد قادة جيش أبو عبد الله الصغير. إعادة تشييده للمدينة التي كانت أطلالًا. القائد المهزوم شيد مدينة تذكّره بالمدينة الزائلة، بغرناطة التي كانت مجد الأحمر فصارت وصمتهم يوم وقعت تحت التاج الكاثوليكي. ولأنه عسكري، قرر أن يخوض حروبًا جديدة.

في كوينكا، جاءتنا أخبار أخرى عن المنظري، أنه كان يريد استقلال تطوان عن فاس. وقيل لنا إنه أراد ميثاقًا مع التاج البرتغالي بموجبه يسلم

تطوان للبرتغاليين ليهزموا فاس، ويرحل وعائلته إلى تونس. هكذا، يا ميجيل، كان الصراع. صراع سلطة ونحن العبيد فيه. هكذا، يا ميجيل، كان الصراع الديني قشرة مزيفة. ربما من حسن طالعنا أن التاج البرتغالي كان منهوكا في معارك أخرى. لولاها، لأهدرت المزيد من الدماء.

في تطوان، نمنا أمام البحر وبين الجبال، عيوننا معلّقة بالضفة الأخرى. افترشنا الأرض وعانقنا أبناءنا في صمت. تصنعنا النوم حتى ننام. فما ثمنا. من يستطيع أن ينام في ليلة كهذه؟ من بوسعه أن ينام بين قلاع وحصون؟ من بوسعه حتى أن يتكلم. يتكلم؟ بأي لغة سنتكلم؟ منذ اللحظات الأولى لوصولنا، أتذكر يا ميجيل، نظر إلينا أهالي المدينة بكراهية وخوف. إخوتنا الأندلسيون نظروا إلينا كمتنصرين، رغم أن إسبانيا طردتنا بحجة أننا مسلمون. وعرب تطوان نظروا إلينا كإسبان، رغم أن إسبانيا هجّرتنا بذريعة أننا عرب. وبقينا هكذا في المنتصف، لا ننتمي لهؤلاء ولا لأولئك.

في الأيام الأولى، وحتى لا نثير مضايقات، قررنا أن ننغلق على أنفسنا. ربما كان قرارًا ضمنيًا، وربما كان واقعًا لا مفر منه. لماذا لا أقول صراحة إن أهل المدينة نفروا منا؟ لماذا لا أقول صراحةً إننا لم نكن نتكلم العربية وليس ثمة تواصل محتمل بيننا؟ لماذا لا أقول إن الأندلسيين، إخوتنا، المطرودين مثلنا، عاملونا بتعالٍ وعجرفة. نحن، بحسب رؤيتهم، من هجرونا قسرًا، وهم من خرجوا كرماء. نحن الفقراء، وهم السادة. نحن يا ميجيل لم نكن إلا حدّادين، مزارعين، ورّاقين، عمالا بلا ثمن.

على أي حال، النتيجة واحدة: انغلقنا على أنفسنا، و تحدثنا لغتنا. هل سنحتفظ بلغتنا يا ميجيل أم ترانا نذوب في أرض جديدة؟

77

تقرير

"هؤلاء المسيحيون الجدد بقرية "لا رودا"، البالغون منهم، يعرفون جميعًا صلواتنا ووصايا الشريعة الإلهية. نعرف ذلك لأننا نختبرهم بعناية كبيرة كل ثلاثة أشهر. إنهم يسمعون القداسات ويحضرون الأعراس، لكنهم يفعلون ذلك خشية العقاب، إذ لا أشعر بأثر المسيحية في نفوسهم. هؤلاء لا يتصدقون ولا يحضرون في أسبوع الآلام، ولا يرافقون السر المبارك... ولا يعترفون بالخطايا... وفي كل الأعياد يثملون ويغنون باللغة العربية، وفي احتفالاتهم يغنون الثامبرا. لا يحملون أيقونات ولا يضعون تصويرات في بيوتهم ولا سبحًا. الحق أقول إنهم جميعًا يتحدثون بالعربية ويعلمونها لأولادهم باهتمام كبير.

خوان مارتينيث دي بيرونا، قس لارودا
عام 1581

77

من أوراق خوان دي مولينا

تطوان/ 1622

(6)

وصلتنا اليوم رسالة من ذوينا في حصن التراب. كنا قد راسلناهم منذ سنوات دون أن نتلقى منهم ردًا. قالوا إن رسالة واحدة فحسب هي التي وصلتهم، وماذا بوسع المرء أن يفعل إن كان تحت الحصار.

أخمّن أنها الرسالة التي لم نقل فيها شيئًا سوى "ننتظر أخباركم لنطمئن عليكم". أخمّن أن الرسائل التي كنت أحكي فيها كيف نعيش أيامًا قاسية

هنا، لم تصل. أمر طبيعي ألا تصل. فمن يقتل ويحرق ويهجّر لابد أن يمنع المراسلات دون ألم أخلاقي. أحمد الله، العلي القدير، أن تركوا بعض الإخوة هناك. أن اضطروا للسماح لبعض من أهالينا أن يبقوا لرعاية الزراعة وشئونها. هذا يشعرنا بشيء من السلوى.

رسالة أولاد يونس لم تقل الكثير. ربما لم تقل شيئًا. ربما لأنها أرسلت مع أحد التجار ولا أحد يأمن التفتيش والعقاب. الرسالة قالت "كونوا بخير. الحياة بدايات ونهايات، وأنتم في بداية جديدة، فلا تنظروا للوراء".

بالفعل بدأنا حياة جديدة. غير أنها الجديدة امتداد القديمة. فكل الحكايات، على ما يبدو، استكمال لحكاية واحدة.

أرواحنا في كوينكا. لم نشعر إلى الآن، رغم مرور ما يزيد عن عقد، بأي اندماج في الأرض الجديدة، ولا مع ناسها. غير أن ميجيل وبعض الصبية بدأوا يندمجون قليلًا مع الأطفال في أعمارهم، ومع الوقت يكتسبون كلمات عربية لا نفهم نحن الكبار معناها. ومن آن لآخر، يواظب ميجيل على زيارة المسجد، ويتعلم القرآن.

78

هامش

عندما وصلت قوات الاحتلال الإسبانية إلى تطوان، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فوجيء الجنود بأن السكان يتحدثون بالإسبانية القديمة. في البداية، ظنوا أنهم تعلموا بعض الكلمات الأجنبية تزلفًا إليهم. غير أنهم أدركوا، مع مرور الأيام، أن السكان يتحدثون الإسبانية كلغة أم، لكنها لغة القرن السادس عشر. عندما توجهوا لقادتهم ليسألوهم عن الأمر، لم يعثروا على إجابة. ولمّا اقتربوا من الناس ليسألوهم كانت الإجابة قاطعة: "الإسبانية هي لغتنا لأننا أندلسيون. هل تتذكرون طرد الموريسكيين في 1609؟ الموريسكيون هم نحن. وهنا نعيش من يومها، ولا نعرف لغة أخرى".

كان الموريسكيون بالطبع قد تعلموا كلمات عربية، وكانوا قد خلطوا العربية بالإسبانية، ليكوّنوا لأنفسهم لغة صارت فيما بعد حقلًا لدراسة اللغويين.

79

من أوراق خوان دي مولينا

(7)

حبيبي خوان

لا أعرف كيف ستمر الأيام. ما أعرفه أننا نعيش في انتظار. انتظار أن تأتي مع ميجيل. أو انتظار أن نرحل نحن إليك. لا أعرف ماذا نفعل هنا دونك. ولا أعرف إلى متى سيفرق بيننا البحر. هل كُتب علينا، يا حبيبي، أن نعيش كغرباء للأبد؟ هل نعرف كيف يمكننا اجتياز المسافات؟ في البيت، غابت الحياة. توقف كل شيء عند نقطة الرحيل. وأنا أدور فيها. مانويل وخوانا يسألون عنك باستمرار. وكارمن لم تعد الطفلة السعيدة، صارت، في غمضة عين، امرأة عجوزًا. هل تعرف

يا خوان كيف يشيب الأطفال؟ كيف تنزوي الضحكة؟

حبيبي خوان

كيف حال ميجيل؟ أتعرف بماذا أشعر؟ خنجر مسنون في صدري. روحي تنزف على غيابه. في أي شرع يفرقون بين الرجل وزوجه؟ بين الأخ وأخيه؟ بين الأم وابنها؟

حبيبي خوان

لن أنتظر هنا طويلًا. إن كان آخر المطاف طرد بلا عودة، سأسافر إليك أينما كنت.

حبيبتك ماريا

كوينكا/ 1610

80

رحلت أمي إلى حصن التراب، وبقيتُ هنا في القبو أقرأ في مخطوطات أجدادي.

أدركت الآن سر التواء رقبة عائلتنا. رأيت كيف حاول بعض الأجداد تجنب توارث العلة، دون جدوى. حتى كشف التاريخ في الأربعين يومًا الأخيرة لم يكن منجيًا. نحن نولد هكذا، بعلة تنتقل عبر الجينات. فائدة الكشف تنحصر في معرفة أسباب العلة، لا علاجها. تاليًا، لسنا في حاجة إلى ختم مستدير فوق بطوننا يحمل وصفنا كموريسكيين، ولا إشارات لقسوة الفراق والتهجير، فالعينة بيّنة.

هل فارقت أمي أبي من أجل ذلك؟ هل يأست من علاجه؟ من علاجنا؟ أم كان لديها علاج رفضه أبي؟

هل قطعت أمي المسافة الطويلة، من حصن التراب إلى كوينكا، لتحجبني عن اللعنة؟ لتزيلها عني؟ هل يضم خطاب أبي الأخير وصيّة غير مرئية ستتجلى يوم ينبغي تنفيذها؟ كم سؤال ينتظر إجابة لأحسم هويتي؟ وهل يجب أن أحسمها؟

قالت أمي إن تفسير أبي لوصايا الاحتفاظ بالمخطوطات سرًا لا تبدو أكثر من قراءة نص قراءة حرفية، دون تعمّق في السياق. أتكون أمي محقة في رؤيتها لأبي؟ أنه اتبع أسلافه فصار سلفيًا، فيما غدا إخفاء المخطوطات، بعد زوال أسباب السرية، محض خوف من ظل قاتل؟

مع ذلك، أصدق أن الوصية وصية، ولترتاح روح الموصي، الذي بات عاجزًا عن الفعل، عليّ أن أنفذ وصيته. أفكر في أن الحل أن أفعل الأمرين: أنسخ ما استطعت من الأوراق، ثم أعلنها للملأ. أم أعلنها للملأ ثم يتعاون الملأ في النسخ والترجمة؟

بين الصناديق، عثرت على أختام. أدوات تجميل. عقود فضية. قوارير عطر. خلخال. أقراط ذهبية باسم "كارمن" بالعربية. كارمن، جدتي كارمن.

81

"في الظاهر يكون الغصن أصل الثمرة، لكن الغصن في حقيقته من أجل الثمرة".

"إن لم يكن الميل إلى الثمر والرجاء فيه، هل كان للبستاني أن يغرس جذور الشجرة؟".

"الشجرة على سبيل المعنى ولدت من الثمرة، والثمرة على سبيل الصورة ولدت من الشجرة".

"جلال الدين الرومي"

82

من أوراق ميجيل بن خوان دي مولينا (ميجيل دي مولينا)

تطوان/ 1653

(1)

رأيت في المنام أني سأودّع الحياة بعد أربعين يومًا. ورغم أن أبي أوصاني بأن أدوّن يومياتي منذ وصولنا إلى هنا، إلا أن قسوة الحياة، واعتمادي على أبي في هذا الشأن، جعلاني أتكاسل حينًا وأيأس حينًا. لم أكن أعرف، كما لا أعرف الآن، جدوى الكتابة. أنظر إلى الماضي كضربة خنجر في القلب، وأظن أن الكتابة مثل النار، كلما قلّبنا فيها كلما زاد توهج الألم. غير أني، من مكاني الآن على حافة الحياة، أظن أن للتدوين فائدة. فائدة التدوين،

إن لم أكن مضللًا، أنها تحفظ الذاكرة. ليس ذاكرتي أنا، بل ذاكرة أحفادنا. ذاكرة سأتركها لإبراهيم ليجمعها من بعدي، يجمعها ويضمها لذاكرة أخرى، ذاكرة أبي وأجدادي.

تبدو الحياة كلغز كبير. ليس بوسعي، مهما بذلت من جهد، أن أفكه أو أصل لعقدته. مشهد الرحيل، الطرد، التهجير، لا يزال مشهد حياتي كلها. النقطة التي أدور حولها. كل ما جاء بعده يترتب عليه. كل ما جاء بعده لا يمكن فهمه دونه. حياتنا في تطوان لم تكن إلا حلقات ممتدة في نفس السلسلة. حلقات يمكن تلخيصها في منظر كارمن وهي غارقة في الدموع. في منظري أنا وأبي سنوات طوال بمفردنا، نجلس بظهرنا على شاطيء البحر، ننظر للضفة الأخرى. بيننا وبين أرضنا كيلو مترات قليلة. بيننا وبين أجدادنا عبور البحر. لكن عبور البحر صار مستحيلًا. وكمحاولة للتعايش مع الحاضر، شيدنا بيوتنا على الطراز الأندلسي. المعمار الوحيد الذي عرفناه واعتادته أعيننا. لم يكن بمسكنا بلغتنا علاجًا ناجعًا، غير أنه كان أملنا الوحيد. أملنا وقدرتنا أيضًا. مات أبي قبل أن يتعلم العربية. كل السنوات التي عاشها هنا لم تغير لغته. لم تغير عقيدته. لم تغير قناعته بأن الأرض للجميع، بأن الدين مسألة شخصية. أنا وأبي عشنا هنا بدينين مختلفين. ظل هو مسيحيًا وظللت أنا مسلمًا منذ قررت ذلك مع التهجير. ولأن مسيحيته كانت صوفية، ولأن إسلامي كان صوفيًا، كنا نلتقي في أرض خصبة.

83

يا جامعَ الشملِ بعدما افترقا ... قَـدِّرْ لعيني بمَـنْ أُحِـبُّ لقا
ويا مجيرَ المحبِّ من فَرَقِ الـ ... ـفراقِ عجلْ وأذهبِ الفرقا
عافٍ من السقمِ مبتلى بهوى ... ما نفعتْ فيه عُـوذَةٌ ورُقى
أجرْ بوصلِ الحَبيب قلبي منْ ... طوارقِ الهجرِ وافتح الطرقا
ولا تسلطْ أذى الفراقِ على ... ضعفي فما لي على الفراقِ بقا
ولا تؤاخذْ فلستُ أولَ منْ ... بخيسِ عهدِ الحسان قد وثقا
أنـا الـذي رَامَ مِـنْ أحبَّتِهِ ... حـظًا بلقياهمُ فما رزقـا

(ابن سهل الأندلسي)

84

من أوراق كارمن دي مولينا

كوينكا/ 1638

(1)

ذات صباح، منذ سنوات بعيدة، شاهدت وجهي الدميم في المرآة. قالت لي أمي: قصي حاجبيك الطويلين بمقص. قالت: مشّطي شعرك المجعد للخلف بفرشاة. قالت: اغسلي أسنانك. قالت أمي: انظري في المرآة. لكن أمي لم تخبرني كيف يمكن أن أزيل القبح من فوق وجهي. لم تخبرني كيف يمكن أن أجبر الآخرين على النظر إلى ملامحي. لم تخبرني أمي لماذا يتجنب العالم نظراتي. نظراتي التي رأيتها في المرآة. نظراتي المخيفة.

نظراتي التي قال عنها حبيب أعمي إنها مخيفة. حبيب وحيد وصلت إليه نظراتي رغم عماه.

(2)

في المرآة، رأيت حاجبيّ العريضين كمظلة. كمظلة ترعى القبح بتواطؤ. وتحاول مداراته دون جدوى. وتحت المظلة العريضة تطل عينان. تتأملان كل الطرق بحياد، وتبحثان عن وجه دميم. قالت أمي: الله لا ينظر إلى صورتك. قالت: ينظر إلى روحك. قالت: الجمال جمال القلب. قالت لي أمي رغم أن معرفتي لا تفيد. كان يجب أن تقول أمي للناظرين. أن تقول لمن يتجنبون النظر إليّ. كان يجب أن تمنح عطاياها للمحتاجين. كلام أمي لم يغير شيئًا. لم يغير شيئًا في الواقع. لم يغير شيئًا في الأحلام. الأحلام الكوابيس.

85

من أوراق ميجيل دي موليا

تطوان 1653

عن دفن أبي في حصن التراب 1641

(2)

وصية أبي الأخيرة كانت أن يدفن في كوينكا. من حيث طُردنا أحياءً أراد أن يعود ميتًا. وبما أنها وصية، والوصية دَين، قمت بالمغامرة. (كم مغامرة أخرى كان ينبغي أن نقوم بها ونقاعسنا؟ كم مرة عجزنا عن نجدة الأحياء لإرضاء الموتى!). الحيلة كانت أن يخرج تابوت أبي مع تجارة

بحرية. لم أفكر كثيرًا في أي عقاب يمكن أن يقع على تاجر يهرّب ميتًا (هل حدث من قبل أن اضطر أحد إلى أن يخفي ميتًا؟ هل حدث من قبل أن هاجر ميت ليستريح في أرض أخرى؟ ما الفرق بين أن تُدفن رفاتك هنا أو هناك؟)

لم أعرف إن كان مرسوم التهجير يشمل كذلك طرد الموتى أم يخص الأحياء وحدهم. بقلق رافقت التاجر كمساعد. كحارس سري لجسد فارق الحياة. لم يكن الأمر، على ما يبدو، أكثر من عبور مضيق، ومن الضفة الأخرى سيكون الانتقال بالعربات، شاقًا. هذا ما يبدو للعيان. لكن الأكثر مشقة الانتقال بجثة أبيك. أن تسير بجثة أبيك يعني أن تسير بتاريخ أسلافك، أن تجر مستقبلك كماضٍ. حَمْل جثة أبي لخص معنى الغروب مع نسمات الصبح الأولى. لخّص الذهاب والإياب في لحظة. وجثة أبي لم تكن محض جثة. كانت، دون مجاز، تجسيدًا لمصير ينتظرني على بعد أشبار، أو مصير أقرب إليّ من حبل الوريد.

في المركب، وسط البضائع المتراصة في صناديق ضخمة، كان تابوت أبي منكمشًا بحياء، كتابوت ارتكب معصية. وفيما كان البحارة ومساعدوهم يتسامرون، كنت أجلس وحيدًا بجوار أبي، ومن آن لآخر يبعث لي التاجر نظرة مواساة. في لحظة انتبهت إلى أن الصندوق الذي يعانق أبي عناقه الأخير نموذج مصغر من الصناديق الأخرى. غير أن نوع البضاعة يختلف. ظهرت أمي في الأفق، بنفس النظرة التي ودّعتنا بها، أشارت بيدها سلامًا واختفت. فيما كانت كارمن، صغيرة كما كانت، تدلدل قدميها وتهدهدهما من فوق سحابة عابرة.

في الطريق البرية لم يتوقف المطر. اختار الحُوذي، لسوء الطالع أو حسنه، أن يسير في نفس مسار التهجير. احتفظت عيناي، كذكرى أبدية، بالمرتفعات المكسوة بالأخضر، بالشوارع المشيدة فوق التلال، بأبواب البيوت المقوسة. تأملت الجوامع وقد استحالت كنائس، والأهلة صلبانًا. مع ذلك كان عبقنا يملأ الهواء. كانت بصماتنا تعلو البنايات. الرائحة والبصمة. رائحة أبي وبصمة محمد دي مولينا. رائحة أمي الممزوجة برائحة أبي. وبصمة دي مولينا المنصهرة في بصمة عائلة إرناندیث. رائحة وبصمة الأندلسيين. لحظات عابرة ومقيمة، شجرة جذورها في الأرض محجوبة، وفروعها يابسة، وأوراقها صفراء.

فكرت في مانويل وخوانا وكارمن، وعلى غفلة مني هربت دمعة. أبي الآن كان في صندوق ينتظر مأواه الأخير. وأنا وإخوتي بقينا في صناديق أخرى. استرحنا في غرناطة. شربنا بعض الماء أمام قصر الحمراء. القصر في بنيته العالية أطل علينا. وأنا في السفح لويت رقبتي للأمام لأتأمل جدرانه. بدا لي مثل عجوز متصاب. بدا لي كرجل يرتدي ثياب النساء ليتخفى. ثم وصلنا لـ جيان. وفي جيان صرخ الحوذي: "الحصانان يسيران على هواهما". صرخ الحوذي: "الحصانان لا يستجيبان لي". كنت أرى انحراف الحصانين وأتأمله. رغبة الحُوذي في السيطرة عليهما لم تزدهما إلا عنادًا. أن تمسك بالزمام لا يعني تحكمك في الأرواح. كلما أرخيت الزمام كلما زادت سلطتك، قلت للحُوذي: "اتبع هوى الحصانين". ثم سألته: "لو اتبعنا رغبتهما، إلى أين سنصل؟" "إلى حصن التراب يا سيدي، إلى حصن التراب". أومأت برأسي وأشرت بيدي بالموافقة. أدركت ولو بريب أن قلوبنا متصلة

بقلوب الحيوانات. هي تعرف أكثر منا لمّا يتعلق الأمر بالغيب.

هل استجبت لرغبة الجوادين أم لرغبتي الغائرة كندبة قديمة؟ أم لطلب العون؟ للعون أم للسلوى؟ هل كان بعوزني في تلك اللحظة شيء أكثر من طبطبة يد قريبة؟ يد تجري في عروقها دمي؟ جيان هي الاسم العربي لـ خآين، وجيان مفترق طرق القوافل. وجيان كانت مفترق طرق لنا.

تلقف الحُوذي أمري كظمآن. ظننت أن السبب قرب المسافة وسرعة الراحة. غير أن الحُوذي فاجأني بأنه من حصن التراب. وصف لي القرية كأنني أعرفها، وعلى خبب الجوادَين غنّى لي أغنيات قروية ظنًا أني أعرفها. لم يعرف الحُوذي أن في الصندوق ميتًا. ولم يعرف أن الميت تطرب جوانحه لسماع تلك الأغنيات.

86

من أوراق ميجيل دي موليا

تطوان 1653

عن دفن أبي في حصن التراب 1641

(3)

من العربة تطلعت إلى أطلال قلعة أندلسية بجوارها قلعة أخرى شيدها فرناندو الثالث، ثم ظهرت كاتدرائية في طور التشييد. قال الحُوذي إنهم يشيدونها منذ مائة عام و لم ينتهوا بعد. في شوارع أعرفها، مررنا بحمّامات عربية أشار إليها الرجل الخمسيني بسؤال: "حمّام عربي، هل زرته من قبل؟" كان الرجل إسبانيًا يتحدث الإسبانية، وأنا، هل يمكن أن

أقول له إني أندلسي؟ ألا يمكن أن يكون هو أيضًا أندلسيًا مثلي؟ أندلسيًا لا يعرف تاريخ أجداده أو يتجاهله؟ كنا نتكلم بنفس اللغة، بنفس الإيماءات، وكنا نحمل نفس الملامح. إلا أن أحدنا بقي والآخر طُرِد.

في الطريق المرتفعة المؤدية لحصن التراب، اضطررت للهبوط من العربة. بقلب يخشى سقوط التابوت رغم تأمينه بحبال، سرت بالخلف ساندًا جثة أبي بكلتا يديّ. ورغم أن الخشب كان حائلًا بيننا، إلا أن قلبه كان ينبض تحت راحتي. التل المرتفع، المضني. جثة أبي. قطرات المطر التي صارت جزءًا من المنظر. البيوت الصغيرة المرتفعة، وحقول الزيتون الممتدة في الأفق بشكل أبدي. كل ذلك كان يمثّل سنوات طويلة مضت، سنوات طويلة آتية. وأنا، رغم ضعفي وقلة حيلتي، في المنتصف منها. أنظر إليها كمن يعلم أن ما مضى هو ما سوف يأتي، أن ما سوف يأتي ليس إلا تكرارًا للماضي. المستقبل هو التاريخ، والتاريخ هو المستقبل. وأنا أرى الواقع مرتين، مرة في الحقيقة، ومرة في المرآة.

باتباع رغبة الحصانين، وصلنا إلى ساحة حصن التراب. هناك توقفت العربة تحت ظلال شجرة ظل هائلة. شجرة تبدو بقِدَم القرية. لمّا ترجلت واقتربت من جذورها انتبهت لحروف عربية. لما دققت النظر في الحروف المحفورة قرأت "دي مولينا للأبد". قاطع الحُوذي شرودي بكسرة خبز محشوة بالجبن. سألني إن كنت أعرف اللغة العربية. "نعم". حينئذ أشار بيده إلى بنايات من طابقين، قال "هنا تسكن عائلة موريسكية". "عائلة دي مولينا؟" "نعم، هل تعرفها؟"

كانت السماء لا تزال تنزف قطرات المطر. أدركت حينئذ أن الوقوف
تحت الشجرة عواقبه أشد من مواجهة المطر. تحت الشجرة يأتينا الماء ملوثًا
بالغبار المتساقط فوق الأوراق. أطلت من الشرفة الصغيرة صبية. أشار لها
الجُوذي بيده فاختفت. "هذه الصبية من عائلة دي موليناً"، قال مبتسمًا
لكن حقق حلمًا لصديق قديم.

87

كارمن دي موليتا

كورينكا/1638

(3)

أثناء ذلك، كانت طريقي مرسومة بوجوه. بوجوه بحجم راحة يدي. وكنت كلما تقدمت خطوة للأمام، وطأت وجهًا، وكلما تراجعت، وطأت الوجه مرتين. قالت أمي: هذه دورة الحياة. قالت: نسير فوق الوجوه. نعتلي الأنوف. نضغط بإصبع الإبهام على العيون. ندوس بطرف أقدامنا على الآذان. قالت: ثم تبتلعنا الأفواه. نستقر حينًا في الأمعاء. قالت أمي: ثم نسير إلى اللاشيء. قالت: نصير عدمًا. أمي حكت لي عن جدة.

جدة كانت عمياء. أنجبت طفلًا يرى. والطفل كان يحب التلوين. كان يحب رسم النهر. رسم التلال. رسم البيوت القصيرة. رسم القطة. رسم المقاصل. رسم الشجرة. وكان يحب رسم أم تنظر إلى اللا شيء. تنظر بعينين شاردتين. عينان لا تريان مهما حاولتا النظر.

(4)

الطرق الطويلة، مهما كانت طويلة، تنتهي بالسير فيها. يقولون ذلك بتأكيد. يتخيلون أن الطرق رأسية، أو أفقية. وأنا أعلم، من كثرة السير بحثًا عن أبي، أن الطرق الطويلة دائرية. أعلم أن ما حدث يحدث. أن ما يحدث سيحدث. أن ما سيحدث قد حدث. قالت أمي: التاريخ يعيد نفسه. قالت: لا جديد تحت الشمس. قالت: لا يمكن الخروج من هنا، ولا الوصول لهناك. قالت أمي إن السير في الطريق حتمي للوصول. لكن وجهي الدميم لن يتبدل. لم تقل أمي إنه سيتبدل. لم تقل رغم أنها تعرف. تعرف ولا تعرف.

88

موسيقى صوفية تركية

https://www.youtube.com/watch?v=eneGXsWWHZ8

89

أرادت أمي، بالتلميح حينًا وبالتصريح حينًا، أن أتجه لحصن التراب. لم أعرف سر عدم بقائها في كوينكا، ولا سر رغبتها في أن أرحل إلى بقعة أخرى. بقعة أخرى ليس فيها أبي؟ أبي الذي يتجول الآن، بصحبتي، في قبو بيتنا القديم، ويطل من وراء كتفي، بوجهه الشاحب، على مخطوطات أجدادنا. أبي الذي رأيته هنا، في كوينكا، أكثر مما رأيته في أيامه الأخيرة.

برغبة في البقاء، رحلتُ. ودّعتُ مخطوطات أجدادي بوعد بالعودة. أغلقت كل الأبواب بوعد بالعودة. لمّا أغلقت باب البيت، أطل أبي من ورائه، كأن فاصلًا خشبيًا لا يفصل بيننا. كأن فاصلًا زمانيًا لا يفصل بيننا. تسمّرت في مكاني برغبة في البقاء، غير أنه ابتسم ورفع يده اليمنى بإيماءة

السلام. في الرحلة الطويلة من كوينكا إلى مدريد ومن مدريد لخآين ثم إلى حصن التراب، شعرت بانتماء لهذه الأرض. ليس انتماءً للحديث المزيف، بل للقديم المتواري. في بعض الأحيان، كما الآن، يغدو الجمال الزائل أشد طزاجة من الجمال الوليد. الجبهة المتغضنة، الخطوط المنعرجة المارة بين الوجنة والخد، خطا النضوج حول الأنف، الغمازات التي كانت وغدت حفرات مستديرة، هي الطرق والقنوات التي يسير فيها الجمال الوليد، هي الأرض التي تحتمل أساسات البيوت الإسمنتية وأعمدة الخرسان، والقبح.

صعدتُ التل المشيد فوقه حصن التراب، وارتحت تحت شجرة ظل ضخمة. على مدد البصر كانت حقول الزيتون، تهمس لي بشيء لم أسمعه، لكنه سرسب لي إحساسًا بالبؤس. وفي لحظة شعرت فيها بالتيه، أطلت أمي من شرفة ومدت لي يدها. وبينما كنت أقترب، انتبهت أن البيوت تشبه بيوت كوينكا: قصيرة، بأبواب قديمة وضخمة، مقوّسة، وشرفاتها صغيرة. عبرت الطريق فانفتح الباب. من ورائه، أطل وجه يشبهني.

90

- وصل إلى علمنا أنكم تذبحون الغنم كأضحية.
- لا، نحن لا نذبح الغنم.
- ولماذا لا تذبحون الغنم؟
- لأننا لا نأكل الغنم.
- وهل تأكلون الخنزير؟
- لا، لا نأكل الخنزير.
- ولماذا لا تأكلون الخنزير؟
- لأننا لا نأكل اللحم، لأننا نباتيون.

- متى كانت آخر مرة أكلتم فيها الخنزير؟
- نحن لا نأكل الخنزير.
- لا تأكلون الخنزير لأنه حرام، صحيح؟
- لا، لا نأكل الخنزير لأننا نباتيون.
- هل لديكم شهود على أنكم لا تأكلون الخنزير لأنكم نباتيون؟
- وهل لديك شهود على أننا لا نأكله لأنه حرام؟
- وظيفتي أن أسأل، دورك أن تجيبي!
- البينة على من ادعى.
- أنتِ متهمة بممارسة الإسلام سرًا.
- والبينة؟
- أنك لا تأكلين الخنزير.
- التهمة مضحكة.
- أنتِ إذن تعترفين باعتناقك الإسلام؟
- أنا معترفة بأنني نباتية. ومعترفة بأن سؤالك عار.
- وبسبب هذا العار ستُحرقين يا كافرة.

(من محاكمة كارمن دي موليا. كوينكا 1641)

91

"إن الطائر المفتتن بالحبة موجود على السطح، لقد فتح الجناح لكنه مقيد بالفخ".

(المثنوي| الرومي)

92

كارمن دي مولينا

كوينكا/1638

(5)

في الطريق رأيت آبارًا جافة، كلما نظرت في ظلمتها، رأيت وجهي. عيناي الجاحظتان، المرعوبتان، المنتظرتان للرحمة، تتطلعان إلى الأعلى، فيما أنظر من أعلى إلى عينيّ برعب أكبر، رعب من يرى قطًا أسود بعينين خضراوتين في الظلام.

(6)

جدتي العمياء لم تخبر طفلها عن عماها. لم تجد العبارات الملائمة لشرح العمى. وذات صباح، ذات صباح ممطر وبارد، قرر الطفل أن تنظر إليه. اقترب منها بالقلم الأسود. قال: اثبتي يا أمي. قال: افتحي عينيكِ على آخرهما يا أمي. قال: سألون عينيكِ يا أمي. قال: عيناكِ اللتان نسي الله أن يلونهما. وأدخل القلم الأسود في عينيها. أدخل القلم ورسم دائرتين. دائرتين صغيرتين. دائرتين كان بوسع الله أن يصنعهما بإصبعه الخنصر، لكنه لم يفعل.

93

يا من هواه أعزه وأذلني.. بصوت الشيخ محمد عمران

https://www.youtube.com/watch?v=DXfT9H6pahc

94

من أوراق ميجيل دي موليا

حصن التراب

1641

(4)

الصبية التي اختفت ظهرت عند باب البيت، وتطلعت إليّ. عيناها البندقيتان ومحياها المستدير ذكّرني بكارمن. تقدمت نحوها وقبلتها، فظهر من خلفها رجل أربعيني، يشبهني تمامًا.

واساني لويس، ابن عمي، ثم اجتمعت العائلة، واجتمعت على أنه ما من مفر من الدفن في حصن التراب. الحق أنني ترددت، فكرت في أن الوصية

دين، وأنني قطعت هذه الرحلة من أجل الوفاء به. لكن الانتظار حتى الوصول إلى كوينكا بدا لنا إهانة للمتوفي، والدفن في حصن التراب، كما قال لويس، مثل الدفن في كوينكا. هنا يُدفن عمنا مع إخوته، عاتبني.

حدست أني سمعت عبارة "لا يجب أن تأخذ الوصية بظاهرها، بل بمقصدها" دون أن أدري من نطقها، وهل نطقها أحد من الموجودين أم عبرت بخيالي. ولمّا وافقت، سادت لحظة صمت. تبادلوا النظر فيما بينهم، فيما شعرت بحرج. لمّا التقطت السؤال الحائر في عيونهم أخبرتهم أن الصلاة في الكنيسة، والدفن في مقابر الكاثوليكيين، فتنهدوا براحة.

مع غروب الشمس كان غروب أبي النهائي. ألقيت عليه نظرة أخيرة، وودعته بقلب يبكي.

95

كارمن دي مولينا

كوينكا/1640

(7)

احتملت جدتي العمياء في صمت. احتملت الألم العظيم لتمنح لطفلها الأمل. وبعد أن انتهى الطفل وجلس مبتسمًا، دمعت عينا الأم دون إرادة. لما دمعت تساقطت الدائرتان السوداوتان على خديها. حينها، كما حكت أمي، نهض الطفل وعانقها. جفف خديها براحة يده. ورسم الطفل وجه الأم المستدير. رسم الحاجبين الأسودين الطويلين. رسم الفم بشفتين منفرجتين. رسم الأنف الصغير والشعر الأسود بخصلاته الرمادية. وبعد أن رسم العينين

إحداهما بيضاء، والأخرى بيضاء، لوّنهما بالأسود. الأم لن تعلم أبدًا أن الطفل، منذ ذلك الحين، لم ينظر إلى عينيها. أن الطفل اختار الصورة المرسومة. أن الصورة المرسومة كانت تنظر إليه. الطفل لم يشعر بالذنب. عينا أمي بيضاوتان، كان يقول لنفسه. كان يقول دون أن يدري أن العينين البيضاوتين تعنيان العمى. كان يظن أن العينين البيضاوتين فقط لا تنظران إليه.

(8)

يسمّون آبار الطريق حفرًا، وأسميها آبارًا جافة. يتجنبون الاقتراب منها، وأهوى النزول إليها، والسير فيها. كل الآبار يمكن النزول إليها قفزًا، والسير عرجًا جزء أصيل في الحكاية، بإيقاع مخالف للسائرين بأعلى. رواد الآبار يتنزهون كمن يتحركون فوق زجاج. أعلم، لأني معتادة، أن الآبار متصلة ببعضها، أن مساحتها تساوي أو تفوق سطح الأرض، أن الانتقال من بئر لأخرى يتم عبر مرتفعات، وأن التعاقد ينص على حمل أحجار تل فوق ظهرك، كلما انتقلت من بئر لأخرى. وحتمًا، ينتهي بك المطاف مجرد نملة تحمل أحجارًا شتى. وحتمًا، من أجل الأمل، يعني الوصول لآخر بئر، من ضمن ما يعني، أنك تبدأ من جديد.

96

كان أخي. لمّا فُتِح الباب، باب بيت أمي في حصن التراب، رأيت نفسي في المرآة. هُيئ لي في اللحظة الأولى أن خلف الباب، وليس بجانبه، وضعوا مرآةً للداخل. رأيت نفسي بطولي ونحافتي. بشعري الأسود المنكوش والطويل. بعينيّ الشاردتين البندقيتين. فكرت في اللحظة أن من المناسب أن أملّس بيدي على شعري، فلما فعلت انتبهت. في المرآة، لم تُرفع يد، بل ابتسم وجهي وفتحت ذراعين لأعانقني، فيما سمعت أمي، من خلف المرآة ودون أن تظهر، تقول لي إنه توأمك. في الاغماءة، رأيت أبي يحملني فوق كتفيه ويتجول في شوارع كوينكا، فيما كنت أتطلع لنفسي فوق كتفيّ أبي وأشير إليّ من شرفة بيتنا وأتفوه بعبارات لا أذكر منها شيئًا. هل أخي من كان فوق كتفيّ أبي حينها؟ أم أنه من كان في

الشرفة؟ والمرة التي تدحرجت فيها في الشارع المنحدر، هل أنا من كُسرت ذراعي أم كان أخي؟ هل كنا في كوينكا أم حصن التراب، أم كنا في المدينة البعيدة من حيث جئت؟

أمي قالت إنه توأمك. وقبل أن ألتقط أنفاسي كانت تقودنا إلى سرداب آخر تحت البيت. كان أخي يتقدمني، وكنت أراقبه بفتنة من يشاهد كائنًا غريبًا. من يشاهد نفسه. فيما كانت أمي تتحدث، كنت أنتظر إجابات أخي وردود أفعاله، وأبحث في ذلك عن خيوط غير مرئية تربطني به.

في السرداب، الطويل والمربع على خلاف سرداب كوينكا المستطيل، كانت ثمة سحّارات عديدة في ركن واسع. أخبرني أخي أنها خالية الآن. في أركان أخرى وحجرات كانت المخطوطات معروضة ومحفوظة. مخطوطات عائلة دي مولينا من فرع يونس في حصن التراب. مخطوطات الرحيل الأول من كوينكا والبقاء بعد التنصير الجبري ومحاكم التفتيش وثورة البُشارات والتهجير النهائي. مخطوطات البقاء والمناورة بعد أن هُجّر الموريسكيون. أرشيف حصن التراب كان يتكامل مع أرشيف أبي وأرشيف كوينكا. الرسائل المتبادلة والرسائل التي لم تصل. يوميات وقصص وأشعار ورسومات. حياة بشر لم يُهجّروا لكنهم بقوا منفيين في أراضيهم. بين القهر في أرضك والقهر في أرض غريبة، أيهما تختار؟

97

كارمن دي مولينا

كوينكا/1640

(9)

ذات يوم، قالت أمي: ارسمي وجهك. قالت: ثمة فنان لمّا رسم العالم اكتشف أنه رسم وجهه. قالت: ربما ترين في الرسمة جمالًا خفيًا. ورسمت وجهي لعلّي أرى العالم. ورسمت العالم لعلّي أرى وجهي. وفي النهاية كنت أكتشف، مثلما كنت دائمًا أكتشف، أني أرسم وجه أمي. أمام المرآة كنت أجلس، كنت أدقق، كنت أحفظ ملامحي الدميمة. لكن بمجرد أن أنظر للورقة، كنت أستحضر وجه أمي. أمي العمياء، أمي التي صارت عمياء، بعينيها البيضاوتين.

ذات مرة، مثلما نصحتني أمي، قررت أن أرسم العالم من جديد.

رسمت آبارًا، رسمت دلوًا، رسمت سلمًا يؤدي إلى عمقها، وكان عمقها جافًا. لا يمكن السير فيه إلا عرجًا. ورسمت داخل الآبار تلًا، رسمت جبلًا، رسمت سهلًا. رسمت ورشة حدادة، وحقول زيتون. كنت طفلة أقلد ما قالته أمي. رسمت نافذة وبيتًا. رسمت جدارًا شفافًا يمكن العبور منه. رسمت ضفتين لنهرين صغيرين. رسمت قاربين بلا مجداف. رسمت مركبين وسهامًا وأقواسًا. رسمت موجات بلا بحر. رسمت في النهاية، كما كنت أرسم دائمًا، وجه أمي. أمي العمياء، بعينيها البيضاوتين.

(10)

قالت أمي: كل شيء يمر. قالت: كل شيء سيمر. سيمر أو يختفي. ساقتني إلى الشارع وقالت: انظري، وسكبت الماء على الأرض. قالت، أمي العمياء قالت: انظري كيف يعبر الماء بين الثقوب. قالت: انظري كيف يخترقها ليهرب. قالت: انظري كيف لا يترك أثرًا. قلت: أنظر. قالت هكذا الأشياء تمر. ثم سكبت الماء مرة أخرى. ثم قالت: انظري. قلت: أنظر. قالت أمي: أترين كيف يترك بقعة مستديرة. قلت: أرى. قالت: بعد قليل ستختفي. قالت: هكذا الأشياء تختفي.

لكن أمي لن ترى وجهي. رحلت قبل أن ترى دمامتي. قبل أن تنظر إلى علامات التعذيب فوق جبيني. أمي لم تقل إن ثمة أشياء لا تمر. إن ثمة أشياءً تصنع أخاديد. إن الأخاديد التي صنعتها الأشياء لا تمر. أمي لم تعرف أن أخدود رحيل أبي لم يمر. رحيل ميجيل لم يمر. وموتها لم يمر. لم تعرف أن الأخاديد كانت عميقة في القلب، وصداها في الجبهة وحول الأنف. لم تعرف أن الدمامة لن تختفي. أن الدمامة تكاثرت على وجهي. أن وجهي صار مثقوبًا. أن الثقوب مثل لدغات النحل. لدغات نحل داخل أخاديد.

خفر في الطريق أسميها آبارًا. آبارًا جافة أنزل إليها وأسير فيها. أنتقل من واحدة إلى أخرى. أنتقل حاملة فوق ظهري جبالًا، مثلي مثل أي مؤمن مخلص. مؤمن يحمل جبالًا، لكن جبالي سائلة. جبالي ليست صخرية. ليست حجرية. جبالي ليست من البازلت ولا المرمر. جبالي، التي أحملها فوق ظهري، جبال سائلة. سائلة مثل الزئبق. سائلة مثل الماء. سائلة مثل الدم.

98

كارمن دي مولينا

كوينكا/1641

(11)

السماء التي بلا زرع تمنح المطر. الموت يمنح التشبث بالحياة. الحياة تمنح مزيدًا من الموت. رجل الدين لا يعرف الله. فاقد كل شيء، يعطيه.

99

في حصن التراب انكشفت رسالة أبي. الحروف المحجوبة عن الرؤية غدت واضحة كالشمس. كتب أبي بخط جميل:

"يوم انكشاف المضمون، ابق في مكانك. وادفن الرسالة في قبر جدك خوان دي مولينا"

100

كارمن دي مولينا

كوينكا/ 1641

في طريقي لتنفيذ حكم الإعدام شنقًا لزندقتي، أكتب كلمتي الأخيرة: هذه المدينة مدينتي. هنا موتاي. هنا ذاكرتي.

101

من أوراق إبراهيم بن ميجيل دي موليتا
تطوان

أوصاني أبي أن أحتفظ بأوراقه في سحّارة، كما أوصاني أن أضيف إليها أوراقا جديدة أكتبها بخط يدي. ودون أن أدري ما أهمية ما كتب ولا ما سأكتب، نفّذت وصيته، لعله بذلك يستريح في قبره. لعله بذلك يسامحني على لا مبالاتي.

لكن بالإضافة للتدوين والنسخ، كانت وصية أبي الأصعب أن يتكفل أبنائي وأحفادي بجمع كل تلك الأوراق في مكان واحد: إما في سراديب كوينكا أو حصن التراب.

ولأني لا أملك إلا نقل الوصية، أترك هذه الورقة لأحفادي ليروا ماذا يفعلون.

102

رأيت في المنام شجرة هائلة، تتساقط ورقاتها الكبيرة فتغطي الأرض تمامًا. كانت الورقات صفراء، خريفية وقابلة للكسر بمجرد لمسها. كان الجو عاصفًا، وكنت أشعر كأني سأتطاير، دون رأفة. وبينما كنت أفكر في الاختباء خلف الشجرة، ثمة شيء كان يدفعني لالتقاط ورقة بدت أنها لي.

كانت الورقة ضخمة مثل راحة يد مزارع، ومشققة كأنها منذ قديم الأزل. لمّا نظرت فيها، انتبهت لاسمي محفور في نسيجها. على عكس الواقع، كنت أنتمي، في الحلم، لأمي.

في لحظة ما توقفت العواصف، وساد صمت سرمدي. من فوق الشجرة، تطلعت إليّ ورقات تحمل وجوه أطفال مبتسمين. وعلى الأرض، انكشفت

لي الأسماء المحفورة بين نسيج ورقات أزلية. من بين الأسماء قرأت: عبد الله، عائشة، مريم، خوان، ماريا، كارلوس، ميجيل، خوانا، مانويل، كارمن، إبراهيم. وبينما كنت أحمل ورقتي وأسير لقبلة أعرفها، بخطوات للأمام ورقبة ملتوية للخلف، رأيت كل الورقات صارت شجرة، تمسك بتلابيبي، وأجرّها.

103

ويوم تأتي رحلتي الأخيرة،

وأستعد لركوب مركب بلا عودة،

ستروني على الحافة بلا حقيبة،

شبه عارٍ، مثل أبناء البحر.

(أنطونيو ماتشادو)

مصادر

هذه الرواية استفادت، بالإضافة للزيارات الميدانية وقراءة الأرشيفات الخاصة بالفترة الزمنية المطروحة، بالعديد من الكتب والدراسات التي أود، كمؤلف، أن أوجه الشكر لأصحابها:

1- Fioravanti, M Victoria; Agrida Burillo, Fernando; López García, Bernabé, *Ramón Lourido y el estudio de las relaciones hispanomarruquíes*, la agencia española de cooperación para el desarrollo, 2010

2- García Arenal, Mercedes, *La aljama de los moros de Cuenca del siglo XV*, estudio en la Universidad de Complutense de Madrid

3- García Arenal, Mercedes, *Inquisición y moriscos: los procesos del tribunal de Cuenca*. Edit: Siglo XXI, 2009

4- Molinet, Antonio, *la expulsión de los moriscos. Edit:* Nabla ediciones, 2009

5- ابن حزم، رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق الدكتور إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الثانية 1987

6- كاسترو، أميريكو. *إسبانيا في تاريخها: المسلمون والمسيحيون واليهود*. ترجمة: د. علي منوفي، المركز القومي للترجمة، 2002

7- لونجاس، بدرو. *حياة الموريسكيين الدينية*، ترجمة د. جمال عبد الرحمن، المركز القومي للترجمة، 2011.

بالإضافة للكتب المشار إليها داخل المتن.

ملحوظتان:

- يمكن استبدال اللينكات الموجودة بمتن الرواية، في حالة مسحها من اليوتيوب، بلينكات أخرى عن ذات الموضوعات، سواء موسيقى صوفية أو أفلام وثائقية عن الموريسكيين.

- أسماء المدن والأماكن الواردة في الرواية باللغتين العربية والإسبانية:

كونكة- كوينكا Cuenca

جيان- خآين Jaén

حصن التراب- إلناتوراف Iznatoraf

البشارات Al Pujarras

قادش Cádiz

مالقة- مالجا Málaga

غرناطة- جرانادا Granada

قرطبة- قردوبا Córdoba

طليطلة- توليدو Toledo

شكر

للصديقة MARISA USERA GIL

المؤلف في سطور

- أحمد عبد اللطيف، (القاهرة، 1978).

- روائي ومترجم مصري، حاصل على جائزة الدولة التشجيعية في الرواية عام 2011، وجائزة المركز القومي للترجمة عام 2013، والمركز الأول بجائزة ساويرس الثقافية في الرواية لعام 2015.

- صدرت له أربع روايات "صانع المفاتيح" 2010، دار العين للنشر، "عالم المندل" 2012، دار العين للنشر، "كتاب النحات" 2013، دار آفاق، و"إلياس" 2014، دار العين للنشر.

- تُدرس روايته "صانع المفاتيح" في قسم الدراسات العربية بجامعة تشارلز بالتشيك.

- ترجم من اللغة الإسبانية العديد من الأعمال منها "مسيرة الفيل" و"البصيرة" و"ثورة الأرض" لساراماجو، "لاورا وخوليو" "المرأة المهووسة" لخوان مياس، "ثلاث روايات نموذجية ومقدمة" لميجيل دي أونامونو.

البريد الإلكتروني:

ahmedxlatif@yahoo.com

"في الأربعين يومًا الأخيرة، كان أبي بالفعل قد ودّع الحياة. كان معلقًا في الأعراف ما بين الحياة والحياة الأخرى. كان معي بجسد غير أن روحه كانت طائرة. بعينين غائمتين، كان يحدثني. بعينين غائرتين، كان يستحضر تاريخًا لم أعرفه من قبل. أو كنت أعرفه ولا أعرفه. تاريخًا كنت أتطلع إليه كأنه لا ينتمي لي. كأنه ينتمي لي. أتطلع إليه كما أتطلع إلى ختم مستدير حول سرتي. أتطلع كمن يمتلك، لكن دون حرية التصرف. كملك لا يحكم. ختم أخضر يحمل هويتي، كأنه الترياق ضد سم الضياع. كأنه الضياع ضد سم الهوية".

من خلال عائلة محمد دي مولينا، تتبع "حصن التراب" واحدة من أكثر المآسي الإنسانية التي لا يمكن نسيانها: محاكم التفتيش الإسبانية وتهجير الموريسكيين. إننا أمام رواية تتوسل التخييل والتاريخ غير الرسمي لكتابة حياة أفراد عاديين فرضت عليهم السلطة (السياسية والدينية) أن يختاروا ما بين التخلي عن دينهم أو التهجير، ثم لم يسلموا من المقاصل والتعذيب، ثم لم يسلموا من الطرد بذريعة أنهم عرب ومسلمون، ثم نُبذوا في الأرض الجديدة بذريعة أنهم مسيحيون إسبانيون. إنها ملحمة أبطال مهزومين دفعوا حياتهم في معركة صراع ديني/سياسي لم يختاروها. ومع حساسية المضمون، يتوسل المؤلف أحمد عبد اللطيف شكلًا روائيًا، يتكيء فيه على الفيديو والموسيقى، ليس فقط كمؤثرات سمعية وبصرية، بل أيضا كمكمّلات سردية لخلق حالة من الشجن الرهيف، حالة تليق ببطولة مبتورة كما تليق بهزيمة بطولية.

غلاف: هبة حلمي